البيت الحرام فى القرآن الكريم

دراسة موضوعية

دكتـور

فتحـى أحمـد علـى حسـن

مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ "آل عمران١٠٢".

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا "النساء ١".

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا، يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا "الأحزاب ٧٠-٧١" [١].

أما بعد:

فالقرآن الكريم كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والحياة فى ظلال القرآن نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، والحمد لله الذى من على بالحياة فى خدمة القرآن حفظاً ودراسة منذ الصغر لأنه (العصمة الواقية، والنعمة الباقية، والحجة البالغة، والدلالة الدامغة، وهو شفاء الصدور، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور، وهو الكلام الجزل، وهو الفصل ليس بالهزل، سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره، بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب، لا يستقصى معانيه فهم الخلق ولا يحيط بوصفه على الأخلاق ذو اللسان الطلق، فالسعيد من صرف همته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه والموفق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكره) [٢].

أمر الله المسلمين بتدبر القرآن ومعرفة أحكامه قال تعالى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا "النساء ٨٢".

وقال: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ "محمد ٢٤". وامتثالاً لهذه الأوامر الإلهية قام علماؤنا الأجلاء فى كل زمان ومكان يتدارسون آيات القرآن ويتدبرون فى معانيها ويبحثون فى أسارها، وترتب على ذلك أن المكتبة الإسلامية قد زخرت بالعديد من المصنفات فى التفسير وعلوم القرآن، ومازال القرآن وسيظل إلى يوم القيامة ينهل منه كل من درسه وجلس على مائدته، ومن هذه المصنفات التى ظهرت فى العصر الحاضر لون جديد من ألوان التفسير وهو التفسير الموضوعى وقد شاءت إرادة الله –تبارك وتعالى- أن يكون هذا البحث المتواضع فى هذا الاتجاه من التفسير فاستخرت الله واستشرت مشايخى فكانت الخيرة فيما اختاره الله وبمباركة ممن استشرتهم من مشايخنا الكرام وقع الاختيار على أفضل بقعة وأشرف مكان وهو بيت الله، وقد سميت هذا البحث المتواضع (البيت الحرام فى القرآن الكريم دراسة موضوعية).

اقتضت طبيعة البحث فى هذا الموضوع أن أقسمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع وخطته، وأما التمهيد فيشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: نبذه مختصرة عن التفسير الموضوعى وأهميته.

المطلب الثانى: نبذة مختصرة عن فضائل البيت الحرام.

المبحث الأول: بيان عظم قدر البيت الحرام ومكانة بانيه عند الله.

---

[١] هذه المقدمة تعرف بخطبة الحاجة – أخرجها أبو داود فى كتاب النكاح باب ما جاء فى خطبة النكاح حديث رقم ٥٩١/٣٢١١٨، والترمزى فى كتاب النكاح باب ما جاء فى خطبة النكاح حديث رقم ٤١٣/٣١١٠٥-٤١٤ وقال حديث حسن صحيح.

[٢] البرهان فى علوم القرآن ٣/١ وما بعدها بتصرف ط مكتبة دار التراث.

ويشمل على ثلاث مطالب:

المطلب الأول: البيت الحرام أول المساجد وضع فى الأرض.

المطلب الثانى: كون البيت الحرام أمناً وأماناً للناس جميعاً.

المطلب الثالث: تشريف الله –تعالى- لإبراهيم عليه السلام بأن يبن له مكان البيت وأذن له فى رفع قواعده.

المبحث الثانى: تحريم صدقاً صدى المسجد الحرام من الدخول إليه، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وعيد الصادين والملحدين بعذاب أليم.

المطلب الثانى: تحريم التعرض لأى شئ له علاقة بالحرم.

المطلب الثالث: التصريح بعذاب الصادين عن المسجد الحرام بعد انتفاء العذر عنهم.

المبحث الثالث: البشرى بدخول المسجد الحرام وجعله قبلة للناس إلى يوم القيامة، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: بشرى النبى ﷺ بدخول المسجد الحرام.

المطلب الثانى: البيت الحرام قبلة للناس إلى يوم القيامة.

وأما الخاتمة فتشتمل على أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذا البحث.

ثم فهرس المصادر والمراجع.

ثم فهرس الموضوعات.

وفى ختام هذه المقدمة اطلب من الله لى ولكل من قرأ هذا البحث أن يرزقنا حج بيته مراراً وتكراراً وزيارة قبر نبينا ﷺ.

كما ألتمس من قارئ هذا البحث المعذرة مما يوجد فيه من عثرات أو تقصير، لابن آدم مجبول على ذلك والكمال لله وحده.

التمهيـد:

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: نبذة مختصرة عن التفسير الموضوعى وأهميته تعريف التفسير الموضوعى:

عرفه الدكتور/ محمود بسيونى فودة –رحمه الله- بقوله (جمع ما تكرر فى القرآن الكريم فى موضوع واحد كى يستعين الباحث بما جاء مهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وما جاء مفصلاً على ما جاء مجملاً، وما جاء موضحاً على ما جاء مشكلاً، كما يطلق التفسير الموضوعى أيضاً على تفسير القرآن بالقرآن)[١].

وعرفه الدكتور/ جمعة عبد القادر –رحمه الله- بقوله: (جمع الآيات المتفرقة فى سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسن المقاصد القرآنية)[٢].

أما الدكتور/ عبد الحى الفرماوى فقد بين أهمية ووجه الحاجة إلى التفسير الموضوعى فقال: إن هذا اللون من التفسير يمكن الداعية محاضراً كان، أو باحثاً، من الإحاطة التامة بأبعاد الموضوع وزواياه بالقدر الذى يمكنه أن يعلل للناس أحكام بطريقة وافية، واضحة، مقنعة، أن يكشف لهم أسراره وغوامضه بدرجة تستريح معها قلوبهم وعقولهم إلى نزاهة الحكيم ورحمته بعباده فيما يشرع لهم.

يمكن الباحث من الوصول سريعاً إلى الهدف دون تعب أو مشقة مما ملئت به كتب التفسير التحليلى من أبحاث لغوية أو فقهية...، مما يعوقه عن غرضه نوعاً ما.

أنه يتفق مع روح العصر الذى يطالبنا أن نخرج أحكاماً عامة للمجتمع الإسلامى، ومصدرها القرآن الكريم فى صورة مواد وقوانين مدروسة يسهل تناولها والانتفاع بها.

يمكن الباحث من دفع التعارض ورداً للشبهات التى قد يشيرها ذوى الأغراض السيئة خاصة فى هذا العصر)[٣].

المطلب الثانى: نبذه مختصرة عن فضائل البيت الحرام.

لا يوجد على وجه السيطة بيت له قدسية وعظمة وشرف هذا البيت نسب إلى الله، وبناه خليله، وجعله أمناً وأماناً، ارتبط به بعض أركان الإسلام كالحج والصلاة فقبلتها البيت ولنترك الحديث لبعض العلماء ليتحدثوا عن فضائل البيت: قال العلامة محمد الأمين الهررى (وحسب البيت شرفاً وفضلاً، أنه حرم آمن ومنابة للناس ومبارك وهدى للعالمين، وما جاء فيه عن رسول الله ﷺ فى حرمته وفضله من أنه لا يسفك فيه دم، ولا يعضد شجرة، ولا يختلى خلاه، وأن قصده مكفر للذنوب، ماحٍ للخطايا، وأن العبادة التى تؤدى فيه لا تؤدى فى غيره، وأن استلام الحجر الأسود فيه رمز إلى مبايعة الله على إقامة دينه، والإخلاص له، وأن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى غيره). إلى غير ذلك من الفضائل التى سجلها القرآن وسنة النبى –عليه الصلاة وأزكى السلام-[٤].

المبحث الأول: بيان عظم قدر البيت الحرام ومكانة بانيه عند الله:

ويشتمل على الطالب الآتية:

المطلب الأول: البيت الحرام أول المساجد وضعاً فى الأرض أراد الله تبارك وتعالى للبيت الحرام أن يكون قبلة للموحدين فى كل وقت وحين، فبين فى سورة آل عمران أن الكعبة هى أول بيت وضع للناس لعبادة الله فى الأرض، قال الله تعالى:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ، فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ

"آل عمران ٩٦-٩٧".

سبب النزول:

أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جريج قال: (بلغنا أن اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه فى الأرض المقدسة، فقال المسمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت إلى قوله "مقام إبراهيم..." [٥]).

---

[١] التفسير الموضوعى ومنهج الحق فى هداية الخلق ص١٠، د/ محمود بسيونى فودة، مطبعة الأمانة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

[٢] معالم سور القرآن وانح؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ درره ٥/١، د/ جمعة على عبد القادر ط مكتبة رشوان الطبعة الثانية.

[٣] البداية فى التفسير الموضوعى ص٥، ٦٩، ٧٠. د/ عبد الحى الفرماوى.

[٤] تفسير حدائق الروح والريحان ٢٢/٥.

[٥] روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى ٣/٤ لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى ١٢٧٠هـ المطبعة الأميرية، بولاق.

وأخرج سعيد بن منصور عن عكرمة قال: "لما نزلت: "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً" الآية، قالبت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبى ﷺ: إن الله فرض على المسلمين حج البيت، فقالوا لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا فأنزل الله "ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين"[١].

أقوال العلماء فى المراد بالأولية فى الآية

يقول الإمام الماوردى: "لا اختلاف بين أهل التفسير أنه أول بيت وضع للعبادة، وإنما اختلفوا هل كان أول بيت وضع لغيرها على قولين:

أحدهما: أنه قد كانت تَبْلُهُ بيوت كثيرة، وهو قول الحسن.

والثانى: أنه لم يوضع قبله بيوت، وهو قول مجاهد وقتادة"[٢].

ما ذكره العلامة الماوردى فى كلا القولين هو أولية فى الزمان أما الشيخ السايس –رحمه الله- فقد ذكر فى تفسيره المراد من هذه الأولية فقال: "أولية البيت، قبل أولية شرف، وقيل أولية زمان، ولا مانع من أن يكون كل واحد منهما مراداً نقدم أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان بنيا البيت الحرام للعبادة ثم جاء سليمان –عليه السلام- وبنى بيت المقدس، فالأولية زمانية وهى تستلزم أولية الشرف، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه أول بيت وضع على الأرض بالنسبة للبيوت مطلقاً فقالوا: إن الملائكة بنته قبل خلق آدم وإن بيت المقدس بنى بعده بأربعين سنة، روى البخارى ومسلم من حديث أبى ذر قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وضع للناس؟ فقال: "المسجد الحرام ثم بيت المقدس، فقيل كم بينهما؟ قال: أربعون سنة".

وقد يقال إن هناك تعارضاً بين ما ذكرنا أن بناء الكعبة كان قبل بناء بيت المقدس بعدة قرون، وأن الذى بناه إبراهيم وبين ما روى أن الذى وضعه الملائكة قبل بيت المقدس بأربعين سنة وقد أجيب بأن الوضع غير البناء، وبأنه لعل الذى كان من إبراهيم وسليمان –عليهما السلام- كان إعادة، ومعلوم أن بين إبراهيم وسليمان عدة قرون فلا منافاة"[٣].

فالبيت الذى نستقبله فى صلاتنا هو أول بيت وضع متعبداً للناس بناه الخليل وولده إسماعيل للعبادة، ثم بنى المسجد الأقصى بعد ذلك بعدة قرون بناه نبى الله سليمان –عليه السلام- سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد فكان جعله قبلة أولى لأن النبى ﷺ على ملة إبراهيم ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم، إذن فليس فى الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم من البيت الحرام ويتبع هذه الأولية فى الزمان الأولية فى القدر والشرف لأنه بيت الله.

الغرض من ذكر هذه الأولية

وعن الغرض من هذه الأولية يقول العلامة النيسابورى: "وأعلم أن الغرض الأصلى من ذكر هذه الأولية بيان الفضيلة وترجيحه على بيت المقدس، ولا تأثير لأولية البناء فى هذا المقصود، وإن كان الأرجح ثبوت تلك الأولية"[٤].

ولقد فصل القول فى بيان الاختلاف فى هذه الأولية فى الآية صاحب خليل الرحمن فقال ما نصه: "وقد اختلفوا فى المراد بكون الكعبة أول بيت وضع للناس:

الرأى الأول:

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية هنا كونه أولاً فى الوضع والبناء ورووا فى ذلك آثاراً منها: أنه تعالى خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين.

ومنها: أنه تعالى بعث ملائكة لبناء بيت فى الأرض على مثال البيت المعمور وذلك قبل خلق آدم،

ومنها: أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، وأنه خلق قبل الأرض بألفى عام. وليس فى هذه الآثار خبر صحيح.

قال ابن كثير: "وزعم السدى أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً،

أما الحديث الذى رواه البيهقى فى بناء الكعبة فى كتابة دلائل النبوة من طريق ابن لهيعة عن زيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً "بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فأمرهما ببناء الكعبة فبناه آدم ثم أمر بالطواف به وقيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس" فإنه من مفردات ابن لهيعة وهو ضعيف. والأشبه والله أعلم أن يكون هذا موقوفاً على عبد الله بن عمرو، ويكون من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كلام أهلا الكتاب.

وقيل إن آدم –عليه السلام- لما أهبط إلى الأرض شكا الوحشة فأمره الله –تعالى- ببناء الكعبة وطاف بها وبقى ذلك إلى زمان نوح –عليه السلام- فلما أرسل الله الطوفان رُفِع البيت إلى السماء السابعة حيال الكعبة يتعبد عنده الملائكة يدخل كل يوم سبعون ألف ملك سوى من دخل من قبل فيها، ثم بعد الطوفان اندرس موضع الكعبة وبعى مختفياً إلى أن بعث الله تعالى جبريل –عليه السلام- إلى إبراهيم –عليه السلام- ودله على مكان البيت وأمره بعمارته فكان المهندس جبريل والبناء إبراهيم والمعين إسماعيل -عليهم السلام-.

---

[١] لباب النقول فى أسباب النزول ص٦٩، للإمام/ جلال الدين السيوطى طبعة المكتبة التوفيقية.

[٢] النكت والعيون ٤١٠/١ أبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى طبعة دار الكتب العلمية.

[٣] تفسير آيات الأحكام ٩/١، ١٠ للشيخ / محمد على السايس طبعة دار الكتب العلمية.

[٤] تفسير غريب القرآن ورغائب الفرقان ٢١٢/٢ للعلامة / نظام الدين الحسن بن محمد القمى النيسابورى المتوفى ٧٢٨هـ طبعة دار الكتب العلمية.

قال القاضى عياض تعليقاً على هذا الرأى:

"إن الذى يقال من أنه رفع زمان الطوفان إلى السماء بعيد، وذلك لأن الموضع الشريف هو تلك الجهة المعينة والجهة لا يمكن رفعها إلى السماء، ألا ترى أن الكعبة والعياذ بالله لو انهدمت ونقل الأحجار والخشب والتراب إلى موضع آخر لم يكن له شرف البتة، ويكون شرف تلك الجهة باقياً بعد الانهدام، ويجب على كل مسلم أن يصلى إلى تلك الجهة بعينها وإذا كان كذلك فلا فائدة فى نقل تلك الجدران إلى السماء.

الرأى الثانى:

يرى جمهور المفسرين أن المراد بالأولية فى الآية أن الكعبة هى أول مسجد بنى لعبادة الله –تعالى- وأن إبراهيم هو أول من بناها وقد استدلوا لذلك بما روى عن على –رضى الله عنه- فى قوله تعالى **"إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً"** قال: "كانت البيوت قبلة ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله" أخرجه ابن أبى حاتم عن الشعبى عن على وأخرج ابن كثير سنده عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى على –رضى الله عنه- فقال: ألا تحدثنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض؟ قال: لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا.

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البخارى بسنده عن أبى ذر –رضى الله عنه- قال: قلت يا رسول أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال المسجد الحرام قال: قلت ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. ثم أينما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه".

وقد علق الحافظ ابن حجر فى فتح البارى على هذا الحديث فقال: "وهذا الحديث يفسر المراد بقوله تعالى **"إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً"** ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت وقد ورد ذلك صريحاً عن على".

وقد ذهب إلى هذا الرأى الطبرى وابن كثير والقاسمى وصاحب المنار والمتبادر أنها أولية الزمان بالنسبة إلى بيوت العبادة الصحيحة التى بناها الأنبياء، فليس فى الأرض موضع بناة الأنبياء أقدم منه فيما يعرف من تاريخهم ومما يؤثر عنهم، وهذا يستلزم الأولية فى الشرف وكذا يفهم من كلام الآلوسى –رحمه الله- أنه يرجح هذا الرأى ليأنه ذكر أدلته ولم يذكر أدلة الرأى الآخر. وصدر الروايات الواردة فيه بكلمة قيل والرأى الذى أرجحه هو الرأى الثانى، لأن هذه الآية تدل عليه تقوله –تعالى- "إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا...." يربط هذا البيت بإبراهيم –عليه السلام- إذ يدل على أن الآيات الواضحات التى هى من قبيل الخوارق، والكائنة فى هذا البيت هى مقام إبراهيم فلو كان أحد من الأنبياء بناه قبله لنوه القرآن بذكره كما نوه بذكر الخليل –عليه السلام- وقوله -تعالى- **"وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا....."** يدل أيضاً على أن الخليل –عليه السلام- هو أول من بنى البيت الحرام وأنه لم يكن قد بنى من قبله، لأن رفع قواعد البيت معناه وضع أساسه لأول مرة، وأيضاً قوله –تعالى- **"وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت..."** يدل على أنه الله عز وجل مكن خليله –عليه السلام- من مكان البيت الحرام ودله عليه وأمره ببنائه، وأن يطهره للطائفين والقائمين والركع السجود.

ولم يرو عن النبى ﷺ فى هذه المسألة إلا حديث أبى ذر ولذلك كانت الأراء التى تقول إن أول من بنى البيت هم الملائكة أو آدم أو أنه خلق قبل خلق الأرض، لا تستند إلى دليل صحيح من القرآن أو من السنة الصحيحة عن النبى ﷺ غير أنه من الجائز أن تكون هذه القعة التى بنى عليها البيت الحرام كانت معروفة الشرف والمنزلة لدى من سبق إبراهيم من الأنبياء –عليهم السلام- وذلك بأن يكون الله تعالى قد عرفهم أنه فوق هذه البقعة من الأرض سيبنى نبى كريم من أنبيائه بيتاً بيكون قبلة للناس إلى يوم القيامة.

ولهذا كانت هذه البقعة من الأرض معظمة عند من سبق الخليل من الأنبياء –عليهم السلام-[1].

معنى كونه موضوعاً للناس

فى هذا المعنى يقول العلامة النيسابورى ما نصه: (ومعنى كونه موضوعاً للناس أنه جعل متعبدهم وموضع طاعتهم يتوجهون نحوه من جميع الأقطار، وليس كل أول يقتضى أن يكون له ثان فضلاً أن يشاركه فى جميع خواصه فلا يلزم من كونه أول أن يكون بيت المقدس ثانياً له ولا مشاركاً فى وجوب الحج والاستقبال وغيرهما من الخواص) [2].

ولما ذكر المولى عز وجل فى هذه الآية الكريم أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس ذكر المكان الذى وُجد فيه فقال: **"للذى ببكة مباركاً"**.

الأقوال الواردة فى "بكة" واشتقاقها:

يقول الإمام الماوردى –رحمه الله- (وفى بكة ثلاثة أقاويل:

أحدهما: أن بكة المسجد، ومكة الحرم كله، وهذا قول ابن شهاب.

الثانى: أن بكة هى مكة، وهو قول أبى عبيدة.

---

[1] حديث القرآن عن خليل الرحمن ص٢٧٦-٢٧٩ تأليف/ أ.د/ عبد المنعم ممدوح رماح طبعة دار الإشعاع للطباعة الأولى ١٩٩١.

[2] غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/٢١١.

والثالث: أن بكة موضع البيت، ومكة غيره فى الموضع، يريد القرية روى ذلك عن مالك.
وفى المأخوذ منه بكة قولان:
أحدهما: أنه مأخوذ من الزحمة يقال تباك القوم بعضهم بعضاً إذا ازدحموا فبكة مزدحم الناس للطواف.
والقول الثانى: أنها سميت بكة لأنها تباع أعناق الجبابرة، إذا ألحدوا فيها بظلم لم يمهلوا) [1].

لما ذكر المولى عز وجل فى هاتين الآيتين أن البيت الحرام أول بيت وضع للناس وتحدث عن مكان وجوده ذكر أيضاً بعض فضائله فذكر منها: **"مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا..."** فهذه أربعة فضائل وهى قليل من فضائل البيت الكثيرة المذكورة فى غير هذه الآيات وكذا المذكورة فى السنة النبوية.

فضائل البيت الحرام المذكورة فى الآيتين:

تحدث عن هذه الفضائل العلامة محمد الأمين الهررى فى تفسيره فقال ما ملخصه: (الأول منها ذكره بقوله "مباركاً" أى حالة كونه ذا بركة وخير كثير؛ لأنه قد أفيض عليه من بركات الأرض، وثمرات كل شئ مع كونه بواد غير ذى زرع كما قال تعالى: **"يجبى إليه ثمرات كل شئ"** فترى الأقوات والثمار فى مكة كثيرة جيدة، وأقل ثمناً من كثير من البلاد غيرها، وذكر الثانى بقوله: **"وهدى للعالمين"** أى وحالة كونه هدى أى قبلة لكل نبى، ورسول، وصديق، ومؤمن يهتدون بذلك البيت إلى جهة صلاتهم، ويولون وجوههم شطره فى صلاتهم وربما لا تمضى ساعة من ليل أو نهار إلا وهناك ناس يتوجهون إليه ويأتون إليه مشاة وركباناً من كل فج عميق لأداء المناسك الدينية من حج وعمرة، ولاشك أن هذه الهداية من أشرف أنواع الهدايات.

وذكر الثالث منها بقوله: "فيه آيات بينات مقام إبراهيم" أى فى ذلك البيت آيات بينات، وهى دلائل وعلامات واضحات تدل على حرمته، ومزيد فضله، وعظيم قدرته –تعالى- **"ومقام إبراهيم"** الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت، وكان فيه أثر قدمى إبراهيم، فاندرس من كثرة المسح بالأيدى، وفيه دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم، لأن تأثير قدميه فى الصخرة الصماء وغوصهما فيها إلى الكعبين، وإلانة بعض الصخرة دون بعض، وإبقاءها ألوفاً من الأعوام معجزة عظيمة.

وذكر الرابع منها بقوله: **"ومن دخله كان آمناً"** أى: ومن دخل البيت كان آمناً من ذنوبه.

وقيل من دخل الحرم للنسك تقرباً إلى الله تعالى، كان آمناً من النار يوم القيامة، وإن الله أودع فى قلوب الخلق الشفقة على كل من التجأ إليه)[2].

ثم ختمت الآية الكريمة بالقول بوجوب الحج على المتطيع من هذه الأمة وبينت أن من كفر بترك الحج وهو مستطيع فإن الله عز وجل غنى عن حجه وحج العالمين كلهم **"ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين"**.

نستخلص من ذلك أن:

١- البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس لعبادتهم والأولية فى الزمان والشرف والقدر وسيظل قبلة للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولو كره الكافرون.

٢- تحدثت الآية عن مكانة وشرف المكان الذى هو فيه يشرف البيت نفسه، زاده الله تشريفاً وتكريماً ومهابةً وبراً.

٣- ذكرت الآية بعض الفضائل لهذا البيت وفى غيرها من آيات القرآن ومن سنة الع؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ -عليه الصلاة والسلام- فضائل أخرى.

المطلب الثانى:

كون البيت الحرام أمناً وأماناً للناس جميعاً:

جعل الله عزوجل للبيت الحرام فى النفوس حرمة، وجعله أمناً وآمناً للناس جميعاص سواء العاكف فيه والباد، ببركة دعاء الخليل عليه السلام كما حكاه القرآن: وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا[3] وقوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا [4].

---

[1] النكت والعيون ٤١٠/١.
[2] تفسير حدائق الروح والريحان ١٧/٥ -١٩ بتصرف محمد الأمين الهررى.
[3] سورة البقرة الآية ١٢٦.
[4] سورة إبراهيم الآية ٣٥.

وبالنظر والتأمل فى القرآن الكريم وجدت كثيراً من الآيات الكريمة تحدثت عن أمن وأمان البيت الحرام منها: قوله تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ [١].

وقوله تعالى: جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ [٢].

وقوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ[٣].

وقوله تعالى: وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [٤].

وقوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ[٥].

إلى غير ذلك من آيات كريمة تحدثت عن أمن وأمان البيت الحرام سوف أتعرض لها أثناء الكلام على هذه الآيات.

حول آية سورة البقرة:

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ..... يقول العلامة صاحب البحر المحيط "لما رد على اليهود فى إنكارهم التوجه إلى الكعبة بناء إبراهيم أبيهم، كانوا أحق بتعظيمها، لأنها من مآثر أبيهم، ولوجه أخر من إظهار فضلها وهو كونها مثابة للناس وأمنا، وأن فيها مقام إبراهيم، وأنه تعالى أوحى إليه ولده ببنائها وتطهيرها، وجعلها محلاً للطائف والعاكف والراكع والساجد، وأمره أن ينادى فى الناس بحجها، والبيت هنا: الكعبة، على قول الجمهور، وقيل المراد البيت الحرام لا نفس الكعبة، لأنه وصفه بالأمن، وهذه صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط.

ويجوز إطلاق البيت، ويراد به كل الحرم، وأما الكعبة فلا تطلق إلا على البناء الذى يطاف به، ولا تطلق على كل الحرم واختلفوا فى جعله "آمنا" هل ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة؟ فمن قال إنه فى الدنيا فقيل معناه: إن الناس كانوا يقتتلون ويغير بعضهم على بعض حول مكة، وهى آمنة من ذلك، ويلقى الرجل قاتل أبيه فلا يهيجه، لأنه –تعالى- جعل لها فى النفوس حرمة، وجعلها أمناً للناس والطير والوحش، إلا الخمس الفواسق فخصصت من ذلك على لسان رسول الله ﷺ وأما من أحدث حدثاً خارج الحرم، ثم أتى الحرم، ففى أمنه من أن يهاج فيه خلاف مذكور فى كتب الفقه، وقيل معناه: أنه آمن لأهله يسافر أحدهم الأماكن البعيدة فلا يروعه أحد، وقيل معناه: إنه يؤمن من أن يحول الجبابرة بينه وبين قصده.

ومن قال هذا الأمن فى الآخرة، قيل من المكر عند الموت وقيل من عذاب النار، وقيل من بخس ثواب من قصده قال قوم: هذا الأمن مختص بالبيت، وقيل يشمل البيت والحرم[٦].

وفى آية سورة المائدة:

---

[١] سورة البقرة الآية ١٢٥.
[٢] سورة المائدة الآية ٩٧.
[٣] سورة إبراهيم الآية ٣٥.
[٤] سورة القصص الآية ٥٧.
[٥] سورة العنكبوت الآية ٦٧.
[٦] البحر المحيط فى التفسير ٦٠٨/١، ٦٠٩ للعلامة محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الفرناطى المتوفى ٧٥٤هـ ط دار الفكر ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ ..... يقول الإمام الرازى –رحنه الله- (اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها، هو أن الله تعالى حرم فى الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم فبين أن الحرم كما أنه سبب لأمن الطير والوحش، فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات، وسبب لحصول الخيرات والسعادات فى الدنيا والآخرة، ثم قال –رحمه الله- بعد ذكر المناسبة ما نصه: "جعل" فيه قولان: الأول: أنه بين وحكم، والثانى: أنه صيره فالأول بالأمر والتعريف، والثانى بخلق الدواعى فى قلوب الناس لتعظيمه، وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها، فالكعبة لما ارتفع ذكرها فى الدنيا واشتهر أمرها فى العالم سميت بهذا الاسم.

قوله قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ أصله قوام لأنه من قام يقوم، وهو ما يستقيم به الأمر ويصلح، وذكروا فى كون الكعبة سبباً لقوام مصالح الناس وجوها:

الأول: أن أهل مكة كانوا محتاجين إلى حضور أهل الآفاق عندهم ليشتروا منهم ما يحتاجون إليه طول السنة، فإن مكة بلدة ضيقة لا ضرع فيها ولا زرع، وقلما يوجد فيها ما يحتاجون إليه فالله تعالى جعل الكعبة معظمة فى القلوب حتى صار أهل الدنيا راغبين فى زيارتها فيسافرون إليها من كل فج عميق لأجل التجارة ويأتون بجميع المطالب والمشتهيات فصار ذلك سبباً لاسباغ النصم على أهل مكة.

الثانى: أن العرب كانوا يتقاتلون ويغيرون إلا فى الحرم لم يتعرض له، ولو جنى الرجل أعظم الجنايات ثم التجأ إلى الحرم لم يتعرض له، ولهذا قال تعالى: أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ .... العنكبوت ٦٧.

الثالث: أن أهل مكة صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته وسادة الخلق إلى يوم القيامة وكل أحد يتقرب إليهم ويعظمهم.

والرابع: أنه تعالى جعل الكعبة قواماً للناس فى دينهم بسبب ما جعل فيها من المناسك العظيمة والطاعات الشريفة، وجعل تلك المناسك سبباً لحط الخطيئات، ورفع الدرجات وكثرة الكرامات.

واعلم أنه لا يبعد حمل الآية على جميع هذه الوجوه، وذلك لأن قوام المعيشة إما بكثرة المنافع وهو الوجه الأول، وإما بدفع المضار وهو الوجه الثانى، وإما بحصول الجاه والرياسة وهو الوجه الثالث، وإما بحصول الدين وهو الوجه الرابع، فلما كانت الكعبة سبباً لحصول هذه الأقسام الأربعة، وثبت أن قوام المعيشة ليس إلا بهذه الأربعة ثبت أن الكعبة سبب لقوام الناس[1].

فقد ذكر المولى عزوجل فى هذه الآية الكريمة أربعة أشياء جعلها قياماً للناس منها الكعبة البيت الحرام فركز فى قلوبهم بحيث لا يقع فيها أذى أحد وصارت وازعة لهم من الأزى وذلك فى الجاهلية والإسلام. ولقد اشتدت مبالغة العرب فى تعظيم البيت حتى من كان قاتلاً ولجأ إلى البيت صار آمناً ما دام فيه، وقد أقر الإسلام هذه الميزة للبيت الحرام.

وفى آية سورة إبراهيم:

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا ..... إبراهيم ٣٥، يقول العلامة الزمخشرى (هذا البلد، يعنى البلد الحرام زاده الله أمناً وكفاه كل باغ وظالم وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم –عليه السلام- "آمنا" ذا أمن، فإن قلت أى فرق بين قوله ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وبين قوله ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا "قلت" قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون، وفى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمناً)[2].

فالإمام الزمخشرى قد ذكر الفرق فى تعريف آية إبراهيم وتنكير آية سورة البقرة فالدعاء فى آية سورة البقرة كان قبل بناء البيت وكونه بلداً آمنا، والدعاء فى آية سورة إبراهيم كان بعد بناء البيت وعمارته.

وقد زاد الأمر وضوحاً العلامة ابن جزى فى تفسير فقال (فإن قيل: لم قال فى البقرة "بلداً آمناً" فعرف فى إبراهيم، ونكر فى البقرة أجيب عن ذلك بثلاثة أجوبة:

---

[1] التفسير الكبير ٨٣/١٢-٨٤ بتصرف للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين ابن الحسن بن على التميمى البكرى الرازى الشافعى المتوفى ٦٠٤هـ ط دار الكتب العلمية الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

[2] الكشاف ٣٠٤/٢ للإمام الزمخشرى ط دار المعرفة.

الجواب الأول: قاله استاذنا الشيخ أبو جعفر بن الزبير وهو أنه تقدم فى البقرة ذكر البيت فى قوله وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وذكر البيت يقتضى بالملازمة ذكر البلد الذى هو فيه فلم يحتج إلى تعريف، بخلاف آية إبراهيم فإنها لم يتقدم قبلها ما يقتضى ذكر البلد ولا المعرفة به، فذكره بلام التعريف.

الجواب الثانى: قاله السهيلى وهو أن النبى ﷺ كان بمكة حين نزلت آية إبراهيم لأنها مكية فلذلك قال فيه البلد بلام التعريف التى للحضور، كقولك: هذا الرجل وهو حاضر، بخلاف آية البقرة، فإنها مدنية، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها فلم يعرفها بلام الحضور، وفى هذا نظر؛ لأن ذلك الكلام حكاية عن إبراهيم عليه السلام فلا فرق بين نزوله بمكة أو المدينة.

الجواب الثالث: قاله بعض المشارقة انه قال بلد آمناً قبل أن يكون بلداً فكأنه قال اجعل هذا الموضع بلد آمناً وقال هذا البلد بعدما صار بلداً، وهذا يقتضى أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء مرتين، والظاهر أنه مرة واحدة) [١].

وقال العلامة ابن عاشور عند تفسير هذه الآية: (خرج إبراهيم –عليه السلام- من بلدة أورالكلدانيسين إنكاراً على عبدة الأصنام، فقال **"إنى ذاهب إلى ربى سيهدين"** وقال لقومه **"واعتزلكم وما تدعون من دون الله"** فلما مر بمصر وجدهم يعبدون الأصنام، ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء عرفة تهامة فأسكن بها زوجه، فوجدها خالية ووجد حولها جرهم قوماً على الفطرة والسذاجة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل –عليه السلام- ثم أقام هناك مَعْلَم التوحيد وهو بيت الله الكعبة، بناه هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون مأوى التوحيد، وأقام ابنه هناك ليكون داعية للتوحيد، فلا جرم سأل أن يكون بلداً آمناً حتى يسلم ساكنوه وحتى يأوى إليهم من إذا أوى إليهم لقنوه أصول التوحيد) [٢].

فالأقوال آنفة الذكر متقارنة ومفادها أن إبراهيم –عليه السلام- قد دعا ربه لهذا البلد بالأمن والأمان سواء قبل كونه بلداً أو بعد ما صار بلداً فتقبل الله دعاءه وأصبح أمناً وأماناً.

وفى آية سورة القصص:

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا .....

يقول الإمام الطبرى –رحمه الله- (يقول تعالى ذكره: وقالت كفار قريش: إن نتبع الهدى الذى جئتنا به معك، ونتبرأ من الأنداد والآلهة يتخطفنا الناس من أرضنا بإجماع جميعهم على خلافنا وحربنا، يقول تعالى لنبيه فقل "أولم نمكن لهم حرماً آمنا" يقول أولم نوطئ لهم بلداً حرمنا على الناس سفك الدماء فيه ومنعناهم يتناولوا سكانه فيه بسوء وأمناً على أهله من أن يصيبهم بها غارة أو قتل أو سباء) [٣].

وفيها يقول العلامة الدكتور وهبة الزحيلى (أخبر الله عن شبهة المشركين فى عدم إيمانهم بالنبى ﷺ واعتذارهم بعذر واهٍ فقال "وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا..." إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا ما حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا ويخرجونا من ديارنا.

فأجاب الله عن شبهتهم بقوله "أولم نمكن لهم حرماً آمنا" أى أن هذا الاعتذار كذب وباطل لأن الله تعالى جعلهم فى بلد أمين وحرم آمن معظم منذ وجد فكيف يكون هذا الحرم أمناً فى حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمناً لهم إن أسلموا وابتعوا الحق، ومن خصائص الحرم المكى: أنه يحمل إليه من سائر الثمار فى كل البلدان، كما تحمل إليه أصناف المتاجر والأمتعة تفضلاً بالرزق من عند الله ولكن أكثرهم جهلة لا يفطنون لما فيه الخير والسعادة، ولا يتفكرون ليعلموا الأحق بالعبادة، ويقلعوا عن عبادة ما سواه) [٤].

والمستفاد من الآية الكريمة أنها جاءت لترد على شبهة هؤلاء المشركين فى عدم إيمانهم لأنهم يخافون إن أسلموا أن يدخلوا فى حروب مع أعداء الإسلام ويحدث لهم الخطف والسلب والنهب فرد الموفى –تعالى- عليهم بأنه جعله حراماً آمناً بخلاف البقاع الأخرى التى يحدث فيها الخطف والسلب والنهب، وذكرت الآية أيضاً بعض خصائص الحرم وهو سعة الرزق من الله.

وفى آية سورة العنكبوت:

---

[١] تفسير ابن جزئ ص ٣٧ للإمام/ محمد بن أحمد بن جزى الكلبى ط دار الكتاب العربى.

[٢] التحرير والتنوير ٢٣٩/١٤ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ط دار سحنون للطباعة والنشر والتوزيع. تونس.

[٣] جامع البيان عن تأويل القرآن ٩٣/٢٠ للإمام/ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ط البابى الحلبى الثالثة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.

[٤] التفسير المنير ١٠/ ٥٠٠-٥٠١ للدكتور/ وهبة الزحيلى ط دار الفكر.

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ.... يقول الحافظ ابن كثير: (يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ومن دخله كان آمناً فهم فى أمر عظيم والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى: "لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ .... إلى آخر السورة)[1].

وفيها يقول الشيخ أبو بكر الجزائرى فى تفسيره: (ألم ير أولئك المشركون الكافرون بنعمة الله فى الإنجاء من الفرق نعمة أخرى وهى أن جعل الله تعالى لهم حرماً آمناً يسكنونه آمنين من غارات الأعداء وحروب الظالمين المعتدين، لا يعتدى عليهم فى حرمهم ولا يظلمون فى حين أن الناس من حولهم فى أطراف جزيرتهم وأوساطها يتخطفون فتشن عليهم الغارات ويقتّلون ويؤسرون فى كل وقت وحين، أليست هذه نعمة من أعظم النعم تستوجب شكرهم لله –تعالى- وترك عبادة ما سواه ولذلك قال عاتباً عليهم أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ[2].

إلى غير ذلك من آيات كريمة تحدثت عن أمن وأمان البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً منها قوله فِيهِ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا "آل عمران ٩٧" ومنها قوله تعالى وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ "التين ٣".

والمراد بها مكة والأمين هو الأمن وأمنه هو أمن للعاكف فيه والباد فهو محفوظ من التعرض له بمكروه ما دام فى الحرم.

نستخلص من ذلك أن:

١- كثرة الآيات التى تحدثت عن أمن وأمان البيت الحرام تدل على شرفه وفضله ومكانته عند الله وعند الناس.

٢- البيت الحرام آمن من الحرق والغرق والهدم والتعرض له كما حدث مع أصحاب الفيل، وأمان لساكنيه ولمن جاء إليه من شتى البقاع حاجاً أو معتمراً.

٣- استجاب المولى تبارك وتعالى دعوة سيدنا إبراهيم، فجعل البيت الحرام أمناً وأماناً إلى يوم القيامة والوقع يشهد لذلك ويؤيده.

المطلب الثالث:

تشريف الله –تعالى- لإبراهيم –عليه السلام- بأن يبن له مكان البيت وأذن له فى رفع قواعده

الآيات الكريمة التى تحدثت عن تطهير البيت وبيانه والإذن فى رفع قواعده هى:

قوله تعالى: وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ "البقرة ١٢٥".

وقوله تعالى: وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ "البقرة ١٢٧".

وقوله تعالى: وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ "الحج ٢٦".

حول قوله تعالى: وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ.

---

[1] تفسير القرآن العظيم ٥٥١/٣ للحافظ ابن كثير ط دار القلم للتراث.

[2] أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير ٦٨٣/٢ لأبى بكر جابر الجزائرى ط دار الحديث القاهرة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦.

يقول العلامة أبو حيان: (التطهير المأمور به هو التنظيف من كل ما لا يليق به، وقد فسروا التطهير بالبناء والتأسيس على الطهارة والتوحيد، قاله السدى وهو بعيد، وبالتطهير من الأوثان.

وذكروا أنه كان عامراً على عهد نوح، وأنه كان فيه أصنام على أشكال صالحيهم، وأنه طال العهد فعبدت من دون الله، فأمر الله بتطهيره من تلك الأوثان، قاله سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء ومقاتل.

والمعنى لا ينصب فيه وثن ولا يعبد فيه غير الله –تعالى- وقيل معناه: بَخْرِاهُ ونظفاه وخَلِّقاهُ، وقيل من الآفات والريب وقيل من الكفار وقيل من الفرث والدم الذى كان يطرح فيه وقيل معناه أخلصاه لهولاء لا يغشاه غيرهم.

والأولى حمله على التطهير مما لا يناسب بيوت الله، فيدخل فيه الأوثان والأنجاس وجميع الخبائث وما يمنع منه شرعاً كالحائض)[1].

وإذا كان الإمام أبو حيان يرى أن القول بالبناء والتأسيس فى قوله أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ بعيداً، فإن العلامة ابن جزى يقول فى معنى وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ.....

"عهدنا" عبارة عن الأمر والوصية "طهرا بيتى" عبارة عن بنيانه بنية خالصة كقوله: "أسس على التقوى" وقيل المعنى طهراه عن عبادة الأصنام[2].

وعلى ذلك فالتطهير يحتمل البناء ويحتمل التطهير من كل ما لا يليق به من كل ما يذم شرعاً، فإذا كان المراد من قوله أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ البناء فإن سيدنا إسماعيل –عليه السلام- كان مشاركاً لأبيه إبراهيم –عليه السلام- فى بناء البيت.

وحول قوله تعالى: وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ

يقول الإمام الرازى –رحمه الله-: (قوله "وإذ يرفع" حكاية حال ماضية، والقواعد جمع قاعدة وهى الأساس والأصل لما فوقه، وهى صفة غالبة، ومعناها الثابتة، ومنه أقعدك الله، أى أسأل أن يقعدك أى يثبك ورفع الأساس البناء عليها لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء لأن كل ساف قاعدة للذى يبنى عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد، رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافا فوق ساف فقد رفع السافات.

ثانياً: الأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام، واحتجوا بقوله "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت" فإن هذا صريح فى أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أن إبراهيم –عليه السلام- رفعها وعمرها.

ثالثاً: اختلوا فى أنه هل كان إسماعيل –عليه السلام- شريكاً لإبراهيم –عليه السلام- فى رفع قواعد البيت وبنائه؟ قال الأكثرون: كان شريكاً له فى ذلك والتقدير **"وإذا يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت"** والدليل عليه أنه تعالى عطف إسماعيل على إبراهيم فلابد وأن يكون ذلك العطف فى فعل من الأفعال التى سلف ذكرها، ولم يتقدم إلا ذكر رفع قواعد البيت فوجب أن يكون إسماعيل معطوفاً على إبراهيم فى ذلك، ثم إن اشتراكهما فى ذلك يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يشتركا فى البناء ورفع الجدران.

والثانى: أن يكون أحدهما بانياً للبيت والآخر يرفع إليه الحجر والطين ويهيئ له الآلات والأدوات وعلى الوجهين تصح إضافة الرفع إليهما، وإن كان الوجه الأول أدخل فى الحقيقة.

ومن الناس من قال إن إسماعيل فى ذلك الوقت كان طفلاً صغيراً وروى معناه عن على -رضى الله عنه-، وأنه لما بنى البيت خرج وخلف إسماعيل وهاجر فقالا: إلى من تكلنا؟ فقال إبراهيم: إلى الله، فعطش إسماعيل فلم ير شيئاً من الماء فناداهما جبريل –عليه السلام- وفحص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم وهؤلاء جعلوا الوقف على قوله "من البيت" ثم ابتدأوا: وإسماعيل ربنا تقبل منا طاعتنا ببناء هذا البيت فعلى هذا التقدير يكون إسماعيل شريكاً فى الدعاء لا فى البناء، وهذا القول ضعيف لأن قوله "ربنا تقبل منا" ليس فيه ما يدل على أنه تعالى ماذا يقبل فوجب صرفه إلى المذكور السابق وهو رفع البيت فإذا لم يكون ذلك من فعله كيف يدعو الله بأن يتقبله منه فإذن هذا القول على خلاف ظاهر القرآن فوجب رده)[3].

---

[1] البحر المحيط ٦١١/١.

[2] التسهيل لعلوم التنزيل ص٣٥.

[3] التفسير الكبير ٥٢/٢، ٥٣.

وعلى ذلك فالعطف يقتضى المشاركة فى الفعل السابق وهو رفع القواعد من البيت فيكون إسماعيل –عليه السلام- مشاركاً لوالده إبراهيم –عليه السلام- وهذا هو الثابت، لأن إبراهيم –عليه لاسلام- تولى عملية البناء وإسماعيل –عليه السلام يناوله الحجارة فصح العطف وثبتت مشاركتة إسماعيل –عليه السلام-.

وفى قوله تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ

يقول العلامة محمد الأمين الهررى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أى: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يصدون عن سبيل الله وعن دخول المسجد الحرام، إذا بوأنا وبينا لإبراهيم الخليل –عليه السلام- مكان البيت، أى أذكر لهم الوقت الذى بينا فيه لإبراهيم مكان البيت، وأريناه أصله وأساسه ليبنيه، وكان البيت قد درس بالطوفان، فلما جاء إبراهيم –عليه السلام- أمره الله ببنائه فجاء إلى موضعه، وجعل يطلب أثراً فبعث الله له ريحاً هفافة، فكشفت عن أساس آدم، فرتب قواعده عليه، وقيل بعث الله تعالى سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت، وفيها رأس يتكلم: يا إبراهيم! ابن على دورى فبنى، وكانت الأنبياء بعد رفعه يحجون مكانه، ولا يعلمونه حتى بوأه الله وبينه لإبراهيم، فبناه على أساس آدم، وجعل طوله فى السماء سبعة أذرع بذراعهم وذرعه فى الأرض ثلاثين ذراعاً بذراعهم، وأدخل الحجر فى البيت، ولم يجعل له سقفاً، وجعل له باباً، وحفر له بئراً يلقى فيها ما يهدى للبيت، وبناه قبله شيث، وقبل شيث آدم، وقبل آدم الملائكة ثم بعد إبراهيم بنته قريش، وكان بناؤه هذه المرة قبل المبعث بخمس عشرة سنة، ثم بناه عبد الله بن الزبير ثم بناه الحجاج وهو البناء الموجود الآن)[1].

وفيها يقول الإمام الآلوسى –رحمه الله- (والمراد بالبيت بيت الله عزوجل الكعبة المكرمة، وقد بنيت خمس مرات، **إحداها** بناء الملائكة –عليهم السلام- قبل آدم، وكانت من ياقوته حمراء ثم رفع ذلك البناء إلى السماء أيام الطوفان.

والثانية بناء إبراهيم –عليه السلام- روى أنه تعالى لما أمره ببناء البيت لم يدر أين يبنى فأرسل الله تعالى له الريح الخجوج فكشفت عن أسه القديم فبنى عليه.

والثالثة بناء قريش فى الجاهلية وقد حضره النبى ﷺ وكان شاباً فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر والأسود اختصموا فيه فأراد كل زعيم قبيلة أن يتولى رفعه ثم توافقوا على أن يحكم بينهم أول رجل يخرج من هذه السكة فكان رسول الله ﷺ فرفعوه إليه فوضعه مكانه وكانوا يدعونه عليه السلام الأمين وكان ذلك قبل المبعث فيما قبل بخمس عشرة سنة.

والرابعة: بناء عبد الله بن الزبير.

والخامسة: بناء الحجاج وهو البناء الموجود اليوم، وارتفاعها فى الساماء سبعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع والذراع أربع وعشرون اصبعاً والأصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرزون: وأما طولها فى الأرض فمن الركن اليمانى إلى الركن الأسود خمسة وعشرون ذراعاً، وكذا ما بين اليمانى والغربى، وأما عرضها فهو من الركن اليمانى إلى الركن الأسود عشرون ذراعاً، وطول الباب ستة أذرع وعشرة أصابع، وعرضة أربعة أذرع، والباب فى جدارها الشرقى وهو من خشب الساج مضبب بالصفائح من الفضة، وارتفاع ماتحت عتبة الباب من الأرض أربعة أذرع وثلاث أصابع، والميزاب فى وسط جدار الحِجْر، وعرض الملتزم وهو ما بين الباب والحجر الأسود من الأرض ثلاثة أذرع إلا سبعاً وعرض القدر الذى بدر منه شبر وأربع أصابع مضمومة وعرض المستجاد وهو بين الركن اليمانى إلى الباب المسدود فى ظهر الكعبة مقابلاً للملتزم أربعة أذرع وخمس أصابع وعرض الباب المسدود ثلاثة أذرع ونصف ذراع وطوله أكثر من خمسة أذرع.

وأما الحِجْر ويسمى الحطيم والحظيرة فعلى هيئة نصف دائرة من صوب الشام والشمال بين الركن العراقى والشامى، وحده من جدار الكعبة الذى تحت الميزاب إلى جدار الحِجْر سبعة عشر ذراعاً وثمانى أصابع منها سبعة أذرع أو ستة وشبر من أرض الكعبة والباقى كان زربالغنم سيدنا إسماعيل فأدخلوه فى الحِجْر، وما بين بابى الحِجْر عشرون ذراعاً، وعرض جدار الحِجْر ذراعان، وذرع تدوير جدار الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً، ومن خارجه أربعون ذراعاً وست أصابع، وارتفاع جدار الحِجْر ذراعان فذرع الطوف وحده حوالى الكعبة والحجر مائة وثلاثة وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً، وهذا على ما ذكره الإمام حسين بن محمد الأمدى فى رسالة له فى ذلك والعهدة عليه، وإنا لنرجوا من رب البيت أن يوفقنا لزيارة البيته وتحقيق ذلك بلطفه وكرمه) [2].

لقد توقفت كثيراً قبل نقل هذا الكلام عن وصف الكعبة المشرفة، فلما رأيت الإمام الألوسى –رحمه الله- قد نقله عن الإمام حسين بن محمد الأمدى وقال بعد نقله والعهدة عليها.

---

[1] تفسير حدائق الروح والريحان ٣٠٥/١٠.

[2] روح المعانى ١٤٢/٩.

وعلى ذلك فالاهتمام بالكعبة المشرفة ووصفها هذا الوصف الدقيق الذى لم يوصف به بيت على وجه الأرض يدل على تعظيمها فى نفوس الناس واهتمامهم لشأنها، زادها الله تشريفاً وتكريماً ومهابة وبراً فى نفوس جميع الناس.

بناء الكعبة الشريفة

عن بناء الكعبة الشريفة يقول العلامة سميح عاطف (لقد شاء الله –سبحانه وتعالى- أن يحمل نبيه إبراهيم –عليه السلام- ابنه إسماعيل –عليه السلام- وأمه هاجر إلى واد غير ذى زرع، ولكن هذا الوادى الذى كان، قبل سنين عديد، مكاناً مقفراً فى جوف الصحراء، نجده الآن يضج بالحياة وتتدفق فى أنحائه كل مظاهر العيش التى كانت سائدة فى ذلك الزمن، من رعى وقبليّة، وغير ذلك مما كان يساعد إنسان ذلك الوقت على الحفاظ على بقائه والاستمرار فى وجوده على الأرض.

وإذا كانت هجرة إبراهيم –عليه السلام- بأهله إلى هذا الوادى هى السبب الذى أدى إلى إنبات الحياة فيه، فإن الغاية من ذلك تظهر عندما يعود إبراهيم –عليه السلام- إنفاذاً لأمر ربه لكى يعيد بناء البيت العتيق الذى تهدم وعفّى عليه الزمان وفى نفس المكان الذى بناه فيه آدم –عليه السلام- ليكون أول بيت وضع للناس بمكة، ويصلى فيه الإنسان ويحج إليهن عبادة وزلفى لرب العالمين، فقد هبط آدم –عليه السلام- وأقام البيت لأول مرة، وقيل لما رآه مستوياً أمامه، راح يطوف حوله، عبادة لله، مثلما تطوف الملائكة حول البيت المعمور تسبيحاً وتكبيراً، فحفت الرحمة بمكان وجوده، لأنه أول بيت يعبد فيه الله عزوجل على الأرض.

ثم لما طال العهد بهذا البيت ضاع منه الأثر، وخفيت معالمه، فشاء الله تعالى أن يعيد أبو الأنبياء إبراهيم –عليه السلام- وابنه إسماعيل –عليه السلام- بناء البيت العتيق، وعلى نفس الأسس والقواعد التى بناه عليها أبو البشرية آدم –عليه السلام- أما الصلة فى ذلك فهى أن الأنبياء هم المكلفون بحمل رسالات الله ونشرها فى الأرض، بل وفى كل مكان يبعثون فيه فى هذا الكون الفسيح الذى مازال إنسان الأرض يجهل وجود مخلوقات مماثلة له أو غير مماثلة فى أرجاء ذلك الكون...، وأن تلك الرسالات والدعوات التى يحملها الأنبياء لتنبثق من مشكاة واحدة، وتعمل فى اتجاه واحد، هو الاتجاه الصاعد إلى مرضاة الله تعالى وما كان عمل نبى من الأنبياء لصدم بعمل نبى آخر أو يعارضه فالجهود النبوية تتناسق وتتكامل ليتم بعضها بعضاً ولذلك يكون عمل إبراهيم –عليه السلام- مكملاً لعمل آدم –عليه السلام- فى إعادة بناء البيت الحرام ليظل المحجة للمسلمين على صدى الأزمان والدهور، لأن الدين عند الله الإسلام، "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه" ويأتى إبراهيم –عليه السلام- لزيارة إسماعيل –عليه السلام- فى مكة ويطلعه على ما عهد به إليهما ربهما بقوله تعالى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ "البقرة ١٢٥".

وتطيب نفس إسماعيل لهذا التكليف من لدن العزيز الحكيم حتى يستوى بيته الحرام من جديد كعبة مشرفة، ومثابة للناس وأمناً كما يشاء –سبحانه- لعباده المخلصين، ويندفع إسماعيل مع أبيه فى العمل، يرفعان القواعد من البيت ويدعوان الله تعالى أن يتقبل عملها بهذا الدعاء القرآنى: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ "البقرة ١٢٧".

ويشاء صاحب الأمر والنهى، ربنا تبارك وتعالى فى تكليفه للنبيين أن تتظافر جهود "إبراهيم الشيخ" مع جهود "إسماعيل الشاب" لكى تكون الشيخوخة الحكيمة، والشباب الدافق متعاونين على تنفيذ الأمر الربانى، والعمل الإنسانى على حد سواء فلا تركن الحكمة إلى السكون، ولا تضيع الطاقة هدراً، بل تعملان كالبنيان المرصوص تشدان أزر بعضهما بعضاً فى سبيل إعلاء كلمة الله، ومن أجل مصلحة عباده.

فهلا رأيناكم يعلمنا القصص القرآنى من عظات بالغات تشع أنوارها أبداً لترصع هام الإنسانية بكل ما هو حق وعدل وخير، وهكذا بنى إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام- الكعبة فارتفعت حجارتها، واستوى مقامها الذى تتجلى فيه طمأنينة قلب آدم وحلم إبراهيم وصبر إسماعيل –عليهم السلام- فلا يكاد أحد يدخل المسجد الحرام إلا وتتدفق المشاعر فى داخله بالأمن والأمان وتفيض فى أعضاء بدنه خوالج السلام والاطمئنان، يستشف الداخل ذاته وترتد إليه نفسه مهما طال به الضياع فى سابق أيامه، يدور حول الكعبة مثل الذرات وهى تلتف حول النواة، فى سلام عظيم واستسلام ربانى كريم يملآن المكان والزمان، ويجعلان ذلك الإنسان، جزءاً من هذا المكان والزمان لائقاً بأن يكون فى الزمرة المصطفاة التى ارتضاها الرحمن.

وإذا يرفع إبراهيم وإماعيل القواعد، كانا يطوفان بناظريهما فى أنحاء السماء ويدعوان الله أن يتقبل عملهما ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويطوى التاريخ الإنسان والزمان، ويتهدم البيت الحرام مرات عدة، ولكن بناءه يعاد، وعلى نفس الأساس الذى صنعه إبراهيم –عليه السلام- وهذا إن دل على شيئ، فإنما يدل على أمرين هامين: قدرة البانى ونبوغه فى التصميم. ومن ثم أن يبقى البيت هوهو، لا يعتريه تبديل ولا تغيير لأنه ليس كباقى البيوت.

صحيح أن جهد إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام- كان يقتضى أعداداً من لارجال فقد كان عليهما الحرف فى عمق الأرض وقطع الحجارة ونقلها، ثم تسويتها ورصفها، ولكنهما بشران غير عاديين، وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم، ولا تمال أحداً يعرف الوقت الذى استغرقه بناء الكعبة، تماماً كما يجهل كل باحث كم دام نوح –عليه السلام- مفى

بناء السفينة وذكر سفينة نوح فى هذا السياق جميل ومفيد لأنها كانت أداة نجاة للمؤمنين السابقين المطيعين، كما أن الكعبة ما تزال، ملاذاً للناس ومثابة للعالمين، وأماناً، فالكعبة –إذن- هى سفينة نوح الثابتة على الأرض أبداً وهى تنتظر الراغبين فى النجاة من هول الطوفان الذى يأكل النفوس، ويقتل الضمائر، رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ "البقرة ١٢٨".

وليس دعاؤنا هذا إلا اطمئناناً لقلوبنا؛ وهو اطمئنان جدير بأن يوجد راحة النفس والضمير، وبأن يبعث فينا الأمن الذاتى؛ لأن إبراهيم النبى –عليه السلام- وولده إسماعيل الذى عايش تلك الأحداث قد توجها بالدعاء إلى الله –سبحانه وتعالى- أن يجعلهما مسلمين له، وهما الأكثر إنسانية، والأقوى إسلاماً، يعبدان الله ويقيمان بيته الحرام، ثم يسألانه أن يتقبل منهما، وأن يخرج من ذريتهما أمة مسلمة، وغاية هذا الدعاء -زيادة عن أنه كشف لاهتمامات القلب المؤمن- إنما هى إقامة لصرح العقيدة، واعتبار لكون الكعبة بيتاً مقدساً، لكل الناس، ولكل الأجيال، علّ الله يتقبل منهم التوبة، ويتوب عليهم .... وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ "البقرة ١٢٨".

إذن تتجاوز اهتمامات إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام- الزمن لاذى يعيشان فيه، ويرجوان مستقبلاً هاماً، هو مستقبل الأمة الإسلامية، فلا يريان إلا الله وحده قادراً على بناء هذا المستقبل ولكن عن طريق الرسل والأنبياء، لتصفو قلوب الناس للدعوة وليعيشوا حقاً فى رحاب الإيمان **".... ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم"**.

ويتحقق الدعاء، وتترى الأنبياء والرسل، حتى يكون خاتمها، فيبعث الله محمد بن عبد الله ﷺ يتلوا على الملأ الكتاب المبين، ويعلم الناس الحكمة، ويزكى العالم بالإسلام، ولكى تظل الدعوة إلى الإيمان قائمة، كان لابد من رمز هو برهانها، فلئن كان البيت الحرام منذ آدم، يدل على تلك الدعوة، فإن تعرضه للهدم قد يوهن النفوس الضعيفة بانقطاع تلك الدعوة، فكانت الآية الاستمرارية والديمومة، بل العلامة المميزة، حجراً حمله جبرائيل لإبراهيم سلام الله عليهما ليكون فى مكانه المعين من البيت العتيق.

ومن ملامسة هذا الحجر، انطلق إبراهيم فى طوافه حول الكعبة هو وابنه إسماعيل وبعد الطواف، وقفاً أمام الحجر وقبلاه، فكانت قبلاتهما نموذجاً لقبلات البشر أجمعين، فالشفاه تحنوا على ذلك الحجر المقدس تلثمه مبركة متطهرة.

ولكن ما الذى رمى إليه إبراهيم –عليه السلام- من طوافه وتقبيله؟! هل كان فى نيته أن يجعل الناس على مر الأزمنة والدهور تتذكر فعله وبأنه بنى هذا البيت؟

حاشاً إبراهيم أن يكون له مثل هذه النية، إنه يرنوا إلى البعيد، إلى تلك الأمم التى ولدت، والتى ستولد فيما بعد فيخاطبها بأفعاله قائلاً:

ها هنا، وأمام هذا البيت، جميع الناس يتساوون، مساواة تامة، لا ميزة لأحد على الآخر، فلا سيد ولا مسود، ولا غنى ولا فقير، ولا حاكم ولا محكوم، لا فضل لعربى على أعجمى، كلكم خلق الله، وكلكم أما المساواة التى أرادها الله فلا فضل إلا لمن كان قلبه بالإيمان مفصماً، وقام على العقيدة الصحيحة وسلك الطريق القويم.

إذن، فالغاية جليلة، وليس هوى الأفئدة إلى ذلك المقام عبثاً، بل إشعاراً للإنسانية وحثاً لها على نشر العدل والمحبة فى أرجاء الأرض كلها.

إنه هوىٌ أفئدة إبراهيم لكل من يزور المسجد الحرام فيعود إلى بلده وأهله، وفى نفسه مشاعر لم يعرفها من قبل إنها مشاعر الإنسانية فى سموها، وفى تطلعها نحو المثل الأعلى حتى إذا أحسن أن تلك المشاعر لم تفعل فعلها كان أمامه المزار ثانية، يغتسل بالماء الطاهر، فيتطهر جسمه ويشرب منه فتذهب إدران نفسه، وتكون الحياة الكريمة على الأرض لائقة به حقاً، وكذلك فى السماء"[١].

نستخلص من ذلك أن:

١- الصحيح أن إسماعيل كان مشاركاً لأبيه إبراهيم –عليهما السلام- فى بناء البيت الحرام.
٢- الكعبة بنيت على مر التاريخ خمس مرات آخرها بناء الحجاج بن يوسف الثقفى وهو البناء الموجود الآن.
٣- الوصف الدقيق المذكور آنفاً للكعبة المشرفة يدل على مدى اهتمام وتقدير المسلمين لهذا البيت المعظم.

---

[١] التفسير الموضوعى للقرآن الكريم، قصص الأنبياء فى القرآن الكريم للعلامة/ سميح عاطف الزين ط دار الكتاب اللبنانى الرابعة ١٤٠٨/ ١٩٨٨م.

المبحث الثانى
تحريم صد قاصدى المسجد الحرام من الدخول إليه:

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: وعيد الصادين والملحدين بعذاب أليم:

لقد توعد المولى –تبارك وتعالى- الذين يصدون الناس عن زيارة بيته المحرم بهول أكيد وعذاب شديد فالآية الكريمة التى بينت وعيد الصادين والملحدين بالعذاب الأليم هى قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ "الحج ٢٥".

سبب نزول الآية:

قال الإمام نظام الدين النيسابورى: "وعن ابن عباس أنها نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدور رسول الله ﷺ ومن معه عام الحديبية عن أن يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدى"(١).

وقال الإمام السيوطى: "أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: بعث النبى ﷺ عبد الله بن أُنيس مع رجلين أحدهما مهاجرى والآخر من الأنصار، فاتخروا فى الأنساب، فغضب عبد الله بن أُنيس فقتل الأنصارى ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة فنزلت فيه وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ "الآية"(٢).

يقول الشيخ إسماعيل حقى فى قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ، أى يمنعون الناس عن طاعة الله والدخول فى دينه، والمراد بصيغة المضارع الاستمرار لا الحال ولا استقبال كأنه قيل، إن الذين كفروا ومن شأنهم الصد عن سبيل الله "والمسجد الحرام" عطف على سبيل الله والمراد به مكة أو يمنعون المؤمنين عن طواف المسجد الحرام المحترم من كل وجه فلا يصاد صيده، ولا يقطع شوكة ولا يسفك فيه الدماء(٣).

فالآية الكريمة تحدثت عن هؤلاء الذين كفروا فى أنفسهم وذكرت أنهم صدوا غيرهم عن أمرين هما: سبيل الله، وبيت الله الحرام الذى جعله لجميع الناس سواء العاكف فيه والقادم إليه من أى مكان من بلاد الله، فإذا فعلوا ذلك فلابد وأن يعاقبوا فتحدثت الآية عن جزاء هؤلاء وتوعدتهم بعذاب مؤلم.

اختلفوا فى العاكف والباد فى أى شيئ يستويان؟ حول هذا الاختلاف يقول العلامة نظام الدين النيسابورى (واختلفوا فى المكى والآفاقى يستويات فى أى شيئ؟ فعن ابن عباس فى بعض الروايات أنهما يستويان فى سكنى مكة والنزول بها للآية بناء على أن المراد بالمسجد الحرام مكة، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وهو قول قتادة وسعيد بن جبير أيضاً، ولأجل ذلك زعموا أن كراء دوار مكة حرام.

والأكثرون على أنهما مستويان فى العبادة فى المسدد ليس للمقيم أن يمنع البادى وبالعكس، ومنه قوله ﷺ "با بنى عبد مناف من ولى منكم من أمور الناس شيئاً فلا سمنعن أحداً طاف بهاذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار"(٤).

وعلى هذا فلا منع من بيع دور مكة وإجارتها، وهو مذهب الشافعى، وقد جرت المناظرة بينه وبين إسحاق الحنظلى، وكان إسحاق لا يرخص فى كرار دور مكة، فاحنج الشافعى بقوله تعالى: ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ "الحج ٤٠".

وبأن عمر اشترى دار السجن فسكت إسحاق، وإنما ذهب الأولون إلى أن المراد بالمسجد الحرام ها هنا مكة كلها، لأنه جعل العاكف فيه بإزاء البادى.

أجاب الأكثرون بأنه أراد بالعكف المجاور للمسجد المتمكن فى كل وقت من التعبد فيه)(٥).

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١١٨/١١.

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول ٢٢٠-٢٢١.

(٣) تفسير روح البيان ٢١/١٠ للشيخ إسماعيل حقى البروسوى ط دار إحياء التراث العربى السابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٤) أخرجه ابن حاجة فى سننه رقم ١٠٣٦ سنن ابن ماجه ٢١٠/١٠ ط المكتب الإسلامى بيروت.

(٥) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١١٨/١١، ١١٩.

أقوال المفسيرن فى المراد بالإلحاد فى البيت الحرام

اختلفت أقول المفسير فى المراد بالإلحاد فى الحرم على أقوال ذكرها الإمام الرازى –رحمه الله- فى تفسيره فقال: (وذكر المفسرون فى الإلحاد وجوهاً:

أحدها: أنه الشرك، يعنى من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى، وهو إحدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل.

وثانيها: قال ابن عباس –رضى الله عنهما- نزلت فى عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبى ﷺ فارتد مشركاً، وفى قيس بن ضبابة. وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن خطل حين قبل الأنصارى وهرب إلى مكة كافراً فأمر النبى ﷺ بقتله يوم الفتح كافراً.

وثالثها: قتل ما نهى الله عنه من الصيد.

ورابعها: دخول مكة بغير إحرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم.

وخامسها: أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير.

وسادسها: المنع من عمارته.

وسابعها: عن عطاء قول الرجل فى المبايعة لا ولاله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما فى الحل والآخر فى الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحل، فقيل له. فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله.

وثامنها: وهو قول المحققين، أن الإلحاد بظلم عام فى كل المعاصى لأن كل ذلك صغر أم كبر هناك أعظم منه فى سائر البقاع حتى قال ابن مسعود –رضى الله عنه- لو أن رجلاً بعدن همّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً.

وقال مجاهد: تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات، فإن قيل كيف يقال ذلك مع أن قوله "نذقه من عذاب أليم" غير لائق بكل المعاصى قلنا لا نسلم، فإن كل عذاب يكون أليماً، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية)[1].

هل الوعيد بالعذاب الأليم فى هذه الآية على مجرد إرادة الإلحاد؟ وهل هذا فى الدنيا أم فى الآخرة؟

قال الإمام الألوسى: "والظاهر أن الوعيد على إرادة ذلك مطلقاً فيفيد أن من أراد سيئة فىمكة ولم يعملها يحاسب على مجرد الإرادة وهو قول ابن مسعوتد، وعكرمة وأبى الحجاج.

وقال الخفاجى: الوعيد على الغرادة المقارنة للفعل لا على مجرد الإرادة لكن فى التعبير بها إشارة إلى مضاعفة السيئات هناك والإرادة المصممة مما يؤاخذ عليها أيضاً.

والظاهر أن هذه الإذاقة فى الآخرة، وقيل كان قبل أن يستحله أهله تعجل العقوبة فى الدنيا لمن قصده بسوء"[2].

نستخلص من هذه الآية الكريمة:

١- أن الله –سبحانهوتعالى- توعد هؤلاء الكافرين الذين يصدون أنفسهم عن الدين ويمنعون الناس من الدخول فيه، ويحولون بين الناس وبين دخول مكة لأداء النسك بالعذاب المؤلم يوم القيامة.

٢- أنه توعد بذلك العذاب من يرتكب أية معاصى داخل الحرم.

وكما تحدثت الآية سالفة الذكر عن جماعة من الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله وعن دخول الناس إلى المسجد الحرام لأداء الشعائر وتحدثت عن وعيدهم فهناك آية أخرى تحدثت عن كفار مكة وصدهم للرسول ﷺ عن المسجد الحرام لأداء العمرة عام الحديبية ومنعهم الهدى من الوصول إلى محله وهو مكة ولولا رحمة الله بهم ووجود رجال مؤمنون ونساء مؤمنات فى مكة لم يعلموهم لعُجل لهم العذاب، هذه الآية الكريمة هى قوله تعالى: هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا "الفتح ٢٥".

حول هذه الآية الكريمة يقول العلامة ابن عطية: (يريد بقوله تعالى "هم الذين كفروا" أهل مكة، وقوله "وصدوكم عن المسجد الحرام" هو منعهم النبى ﷺ وأصحابه من العمرة عام الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة يريد العمرة وتعظيم البيت، وخرج معه بمائة بدنه، قاله النقاش وقيل بسبعين، قاله المسور بن

---

[1] مفاتيح الغيب ٢٣/٢٣.

[2] روح المعانى ١٤٠/١٧.

مخرمة ومروان بن الحكم فلما دنا من مكة، قال أهل مكة هذا محمد الذى قد حاربنا وقتل فينا، يريد أن يدخل مكة مراغمة لنا، والله لا تركناه حتى نموت دون ذلك، فاجتمعوا لحربه، واستنجدوا بقبائل من العرب وهم الأجابيش وبعثوا نفور والرسول ﷺ المياه التى تقرب من مكة، فجاء رسو الله ﷺ حتى نزل على بير الحديبية، وحينئذ وضع سهمه فى الماء فجرى غمراً حتى كفى الجيش، ثم إن رسول الله ﷺ بعث إلى مكة عثمان، وبعث أهل مكة إليه رجالاً، منهم عروة بن مسعود، وبديل بن ورقاء، وتوقف رسول الله ﷺ هناك أياماً حتى سفر سهيل بن عمرو وبه انعقد الصلح على أن يتصرف رسول الله ﷺ عنهم ويعتمر من العام القادم، فهذا كان صدهم إياه.

وذكر المولى عزوجل العلة فى أن صرف المسلمين ولم يمكنهم من دخول مكة فى تلك الوجهة، وهو أنه كان بمكة مؤمنون من رجال ونساء خفى إيمانهم، فلو استباح المسلمون بيضتها أهلكوا أولئك المؤمنين.

قال قتادة: فدفع الله عن المشركين ببركة أولئك المؤمنين وقد يدفع بالمؤمنين عن الكفار)[1].

بين الإمام ابن عطية رحمه الله أن الآية واردة فى شركى مكة وصدهم للرسول ﷺ وأصحابه عن دخول مكة للعملة عام الحديبية وأنهم سوف يدخلونها العام القادم بعد انعقاد صلح الحديبية بين المسلمين والمشركين.

يقول العلامة محمد الأمين الهررى: (أنه تعالى بين استحقاق كفار مكة للعقوبة بثلاثة أشياء: كفرهم فى أنفسهم، وصد المؤمنين عن إتمام عمرتهم، وصد هديهم عن بلوغ المحل.

فهم مع هذه الأفعال القبيحة كانوا يستحقون أن يقاتلوا أو يقتلوا، إلا أنه كف أيدى كل فريق عن صاحبه محافظة على ما فى مكة من المؤمنين المستضعفين ليخرجوا منها، أو يدخلوها على وجه لا يكون فيه إيزاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات كما قال "ولوا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم" أى لم تعرفوهم أيها المؤمنون بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين.

أى: ولولا هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم وهم بين أظهرهم لسلطناكم عليهم فقتلتموهم، وأبدتم خضراءهم ولكن بين أفنانهم من المؤمنين والمؤمنات من لا تعرفونهم حين القتل، ولو قتلتموهم للحقكم العار والمشقة بما يلزمكم فى قتلهم من كفارة وعيب)[2].

نستخلص من ذلك أن:

١- إن كفار مكة الذين صدوا المؤمنين عن دخول البيت استحقوا العقوبة العاجلة ولكن الله كف أيدى المؤمنين عنهم لوجود بعض المؤمنون والمؤمنات بينهم.

٢- إن المؤمنين لو تزيلوا وانفصلوا عن المشركين لعذب الله المشركين عذاباً أليماً فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالنار.

المطلب الثانى:
تحريم التعرض لأى شيئ له علاقة بالحرم

لقد حرم الله تعالى بيته، كما حرم التعرض لأى شيئ له علاقة بالحرم، هناك آيتان من القرآن الكريم تحدثتا عن هذا الموضوع وهما:

قوله تعالى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ "المائدة ٢"

وقوله تعالى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "التوبة ٢٨".

---

[1] المحرر الوجيز ١٥/١١٠-١٢ بتصرف.

[2] تفسير حدتئق الروح والريحان ٢٧/٢٩٧، ٢٩٨ بتصرف.

سبب نزول آية المائدة:

قال الإمام السيوطى –رحمه الله-: (أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: قدم الحكم بن هند البكرى المدينة فى عير له يحمل طعاماً فباعه، ثم دخل على النبى ﷺ فبايعه وأسلم، فلما ولى خارجاً نظر إليه فقال لمن عنده: لقد دخل على بوجهه فاجر وولى بقفا غادر، فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام، وخرج فى عير له تحمل الطعام فى ذى القعدة يريد مكة، فلما سمع به أصحاب النبى ﷺ تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتطعوه فى عيره فأنزل الله يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ .... الآية).

أما قوله تعالى **"ولا يجرمنكم..."** (أخرج ابن أبى حاتم، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبى ﷺ نصد هؤلاء كما صدوا أصحابنا، فأنزل الله **"ولا يجرمنكم..."** الآية)[1].

اختلاف المفسرين فى المراد بشعائر الله:

حول قوله يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ، يقول الإمام الرازى –رحمه الله-: (واختلف المفسرون فى المراد بشعائر الله، وفيه قولان:

الأول: قوله "لا تحلوا شعائر الله" أى لا تخلوا بشيئ من شعائر الله وفرائضه التى حدها لعباده وأوجبها عليهم، وعلى هذا القول فشعائر الله عام فى جميع تكاليفه غير مخصوص بشيئ معين، ويقرب منه قول الحسن: شعائر الله دين الله.

والثانى: أن المراد منه شيئ خاص من التكاليف.

وعلى هذا القول فذكروا وجوها:

الأول: المراد لا تحلوا ما حرم الله عليكم فى حال إحرامكم من الصيد.

والثانى: قال ابن عباس: إن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون المشاعر وينحرون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فأنزل الله: "لا تحلوا شعائر الله".

الثالث: قال الفراء: كانت عامة العرب لا يرون الصفا والمروة من شعائر الحج ولا يطوفون بهما فأنزل الله تعالى لاتستحلوا ترك شيئ من مناسك الحج وائتوا بجميعها على سبيل الكمال والتمام.

الرابع: قال بعضهم: الشعائر هى الهدايا تطعن فى أسنامها وتقلد ليعلم أنها هدى، وهو قول أبى عبيدة، قال ويدل عليه قوله تعالى: وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ "الحج ٣٦".

وهذا عندى ضعيف لأن الله ذكر شعائر الله ثم عطف عليها الهدى والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه.

قوله "ولا الشهر الحرام" أى لا تحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه ثم قال تعالى "ولا الهدى" قال الواحدى: الهدى ما أهدى إلى بيت الله من ناقة، أو بقرة، أو شاه.

ثم قال تعالى "ولا القلائد" إنه نهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى على معنى: ولا تحلو قلائدها فضلاً عن أن تحلوها.

ثم قال تعالى: "ولا آمين البيت الحرام" أى قوم قاصدين المسجد، المسجد الحرام[2].

هذه الأشياء المذكورة لما كان لها تعلق مباشر بالبيت حرم المولى عزوجل التعرض لها بأى شيئ فيه مخالفة.

اختلفوا فى القول بنسخ هذه الآية:

نقل هذا الاختلاف الإمام الرازى –رحمة الله- فى تفسيره فقال: (اختلف الناس فقال بعضهم هذه الآية منسوخة لأن قوله "لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام" يقتضى حرمة القتال فى الشهر الحرام، وذلك منسوخ بقوله: وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ "النساء ٨٩".

---

[1] ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

[2] مفاتيح الغيب ١٠١/١١ -١٠٢ بتصرف.

وقوله "ولا آمين البيت الحرام" يقتضى حرمة منع المشركين عن المسجد الحرام وذلك منسوخ بقوله: فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ "التوبة ٢٨".

وهذا قول كثير من المفسرين كابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وقال الشعبى: لم ينسخ من سورة المائدة إلا هذه الآية وقال قوم آخرون من المفسرين: هذه الآية غير منسوخة، وهؤلاء لهم طريقان:

الأول: أن الله أمرنا فى هذه الآية غير منسوخة، وهؤلاء لهم طريقان:

الأول: أن الله أمرنا فى هذه الآية أن لا نخيف من يقصد بيته من المسلمين، وحرم علينا أخذ الهدى من المهدين إذا كانوا مسلمين، والدليل عليه أول الآية وآخرها، أما أول الآية فهو قوله "لا تحلوا شعائر الله" وشعائر الله إنما تليق بنسك المسلمين وطاعاتهم لا بنسك الكفار، وأما آخر الآية فهو قوله "يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا" وهذا إنما يليق بالمسلم لا بالكافر.

والثانى: قال أبو مسلم الأصفهانى: المراد بالآية الكفار الذين كانوا فى عهد النبى ﷺ فلما زال العهد بسورة براءة زال ذلك الحظر ولزم المراد بقوله "فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا")[1].

سبب النزول لهذه الآية آنف الذكر أدى إلى الاستعانة على فهم المراد من الآية وبيان معناها فسبب النزول فرع المعنى والعلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ثم النهى الصريح من الله تبارك وتعالى لجماعة المؤمنين بأنهم لا يحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا آمين المسجد الحرام وإن سبق أن صدهم المشركون عن دخوله فلا يعاملوا عدوهم بمثل معاملتهم.

ويقول العلامة السيد محمد رشيد رضا فى هذه الآية وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ، قرأ ابن عامر وأبو بكر بن عاصم وإسماعيل عن نافع شنْآن بسكون النون الأولى، والباقون بفتحها وهما لغتان وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "إن صدوكم" بكسر إن على أنها شرطية، والباقون بفتحها على أنها للتعليل، وهذه القراءة تشير إلى صد المشركين المؤمنين عن العمرة عام الحديبية وتنهاهم أن يعتدوا عليهم عام حجة الوداع الذى نزلت فيه السورة لأجل اعتدائهم السابق والمعنى عليه ولا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام، ومعنى القراءة الأخرى أنه لا يباح للمسلمين أن يعتدوا على أعدائهم إن صدوهم عن المسجد الحرام أى عن النسك فيه وزيارته ولو للتجارة، واستشكل بأن هذا قد نزل بعد فتح مكة ولم يكن يتوقع صد من أحد وبأنه معارض لقوله: وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ[2].

وأجيب بأن الشرط على معنى الماضى بتقدير الكون أى إن كانوا صدوكم عن المسجد الحرام.

ويمكن أن يقال: إن ورد هذا بعد فتح مكة وظهر الإسلام على الشرك وأهله لا إشكال فيه، لأن الأحكام قد تبنى على الفرض، ولأن هذا الصد قد يقع من المسلمين بعضهم لبعض كما يفعله بعض أمراء مكة فى عصرنا من منع بعض العرب –كأهل نجد- من الحج لأسباب دنيوية، كأخذ بعض أمراء نجد الزكاة من بعض القبائل الذين يعدهم أمراء مكة تابعين لهم.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة معطوفة على قوله "فاصطادوا" داخلة فى حيز شرطه ويكون المعنى: إن السيد الذى كان محرماً عليكم حال كونكم حرماً يحل لكم إذا حللتم.

وأما الاعتداء على من تبغضونهم فلا يباح لكم وأنتم حل، كما أنه لا يباح لكم وأنتم حرم، وإن كانوا صدوكم عن المسجد الحرام من قبل، وهذا لا يمنع من الجزاء على الاعتداء بالمثل لأنه نهى عن استئناف الأعتداء على سبيل الانتقام فإن من يحمله على البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصراً لنفسه لا للحق، وحينئذ لا يراعى المماثلة ولا يقف عند حدود العدل[3].

والمفهوم من قول العلامة رشيد رضا إجابة الإشكال الوارد على هذه الآية بأنها نزلت بعد فتح مكة وبعد الفتح لم يكن هناك صد، أزال الإمام –رحمه الله- هذا الأشكال وأجاب عنه بأن الشرط فى معنى الماضى أى إن كانوا صدوكم، وحتى إن وقع الصد بعد الفتح فلا إشكال فيه أيضاً لأن الصد قد يقع من بعض المسلمين لبعضهم.

---

[1] المصدر السابق ص ١٠٣.

[2] سورة البقرة من الآية ١٩١.

[3] تفسير المنار ١٠٦/٦-١٠٧ للسيد محمد رشيد رضا، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وأما الاعتداء فإنه لا يجوز بحال من الأحوال لأن المسلمين أمروا بالعفو والصفح وعدم مقابلة السيئة بمثلها ويدل على ذلك قوله وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ "الشورى ٤٠".

وحول قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا ...

يقول الإمام البغوى –رحمه الله- "يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس...." قال الضحاك وأبو عبيدة نجس قذر، وقيل خبث، وهو مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع، فأما النجس بكسر النون وسكون الجيم فلا يقال على الانفراد، إنما يقال رجس نجس، فإذا أفرد قيل نجس بفتح النون وكسر الجيم وأراد به نجاسة الحكم لا نجاسة العين، سموا نجساً على الذم.

وقال قتادة سماهم نجساً لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤون.

قوله "فلا يقربوا المسجد الحرام" أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام وأراد به الحرم.

وجملة بلاد الإسلام فى حق الكفار على ثلاثة أقسام:

أحدها: الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية وإذا جاء رسول من بلاد الكفار إلى الإمام والإمام فى الحرم لا يأذن له فى دخول الحرم بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم، وجوز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم.

والقسم الثانى: من بلاد الإسلام: الحجاز فيجوز للكافر دخولها بالإذن ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام لما روى عن عمر بن الخطاب –رضى الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لئن عشت إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً، فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب" فلم يتفرغ لذلك أبو بكر -رضى الله عنه-، وأجلاهم عمر –رضى الله عنه- فى خلافته، وأجل لمن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً.

وجزيرة العرب من أقصى عدن إلى ريف العراق فى الطول، وأما العرض فمن جده وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام.

والقسم الثالث: سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة وأمان، ولكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم.

قوله "بعد عامهم هذا" أى بعد العام الذى حج فيه أبو بكر –رضى الله عنه- بالناس، ونادى على كرم الله وجهه ببراءة وهو سنة تسع من الهجرة.

"وإن خفتم عيلة" فقرا وفاقه "فسوف يغنيكم الله من فضله" قال عكرمة: فأغناهم الله عزوجل بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم[1].

لقد أخبر المولى عزوجل فى هذه الآية المباركة بأن المشركين سواء أكانوا كفاراً أم عبدة أوثان نجس فلا يدخلون المسجد الحرام بعد هذا العام الذى حج فيه أبو بكر بالمسلمين وإن خاف المسلمون الفقر بعدم دخولهم المسجد الحرام فالله عزوجل سوف يغنيهم من فضله، وهذا يعد تشريفاً وتعظيماً وتكريماً من صاحب الحرم لحرمه حيث حرم على هؤلاء الأرجاس دخوله.

يقول الإمام الرازى –رحمه الله- (قال الشافعى –رضى الله عنه- الكفار يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك: يمنعون من كل المساجد، وعند أبى حنيفة –رحمة الله- التصوير مغطى على الكلام ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ ، من المسجد الحرام ولا من سائر المساجد، والآية بمنطوقها تبطل قول أبى حنيفة –رحمه الله- وبمفهومها تبطل قول مالك أو نقول الأصل عدم المنع وخالفناه فى المسجد الحرام لهذا النص الصريح القاطع، فوجب أن يبقى فى غيره على وفق الأصل)[2].

نستخلص من ذلك أن:

١- حرم الله تعالى البيت الحرام وحرم التعرض لأى شئ له اتصال بالبيت الحرام كالهدى والقلائد.

٢- النهى الصريح من الله تبارك وتعالى بعدم قرب المسجد الحرام وسبب هذا النهى مذكور فى الآية الكريمة وهو أنهم نجس والمراد نجاسة الحكم لا العين، ويعد هذا تعظيماً عظيماً للبيت الحرام.

---

[1] معالم التنزيل ٢/٢٨١- ٢٨٢ للإمام أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء الغوى الشافعى المتوفى ٥١٦هـ ط دار المعرفة.

[2] مفاتيح الغيب ١٦/ ٢١-٢٢.

٣- قول الإمام الشافعى بمنع دخول المشركين المسجد الحرام خاصة مقبول لأن المسجد الحرام له حرمة خاصة وقول الإمام مالك بالاعتبار أولى لأن المساجد كلها لله ولها حرمتها وقدسيتها، وإن كانت الآية مؤيدة لقول الشافعى.

المطلب الثالث:
التصريح بعذاب الصادين عن المسجد الحرام بعد انتفاء العذر عنهم

ورد التصريح بعذاب الصادين عن المسجد الحرام فى آية مباركة من كتاب الله تعالى وهى قوله تعالى: وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[1].

حول هذه الآية الكريمة يقول العلامة رشيد رضا: (أما قوله "وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام" أى وماذا وثبت لهم مما يمنع بما دون عذاب الاستئصال عند زوال المانعين منه بعد، والحال أنهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو للنسك قيل المراد به صدهم النبى ﷺ وأصحابه عام الحديبية سنة ست، والآية نزلت عقب غزوة بدر سنة اثنتين، والمنع كان واقعاً منذ الهجرة.

ما كان يقدر مسلم أن يدخل المسجد الحرام فإن دخل مكة عذبوه إذا لم يكن فيها من يجيره.

والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم ورؤس الكفر فيهم ومنهم أبو جهل وأسر سراتهم، لا فتح مكة كما قال الحافظ بل لم تكن الهجرة نفسها إلا بصد المؤمنين عنه فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم، إذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الأقوياء من يمنعه ويحميه.

وقد وضعوا على ظهر الرسول ﷺ فرث الجذور وهو ساجد فلم يتجرأ أحد على رميه عنه إلا بنته فاطمة -رضى الله عنها-.

ومنعوا أبا بكر من الصلاة وقراءة القرآن فيه فبنى لنفسه مسجداً كان يصلى فيه ويجهر بالقرآن قصدوه عن الصلاة فيه أيضاً لأن النساء والأولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته فخافوا عليهم أن يهتدوا إلى الإسلام، "وما كانوا أولياءه" أى مستحقين الولاية عليه لشركهم ومفاسدهم فيه كطوافهم فيه عراة الأجسام رجالاً ونساء، ولما أجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم بأن يجعل للناس أئمة من ذريته كما جعله إماماً لهم أجابه الله تعالى بأن عهده بالإمامة لا ينال الظالمين وأى ظلم أعظم شناعة وفساداً من الشرك إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ "لقمان ١٣".

وكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقال تعالى: إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ، للشرك وسائر الفساد والظلم وهم المسلمون الصادقون وقد وجدوا، وهذا غاية التأكيد، فإنه بعد أن نفى ولاءة المشركين عن بيت الله تعالى نفى كل ولاية على الإطلاق واستثنى منها ولاية المتقين من المسلمين وهم عدولهم وخيارهم لا من لا فضل لهم فى أنفسهم وإنما يدعون حق الولاية بأنسابها وقيل إن الضمير فى الموضعين لله تعالى، أى ولم لا يعذب الله هؤلاء المشركين بعد انتفاء سببى منع العذاب، والحال أنهم ليسوا أولياءه وأنصار دينه الذين لا يعذبهم؟.

وكأن سائلاً يسأل: من أولياؤه تعالى إذاً؟

فأجيب بصيغة الحصر بالإثبات بعد النفى ما أولياؤه إلا المتقون الذين صارت التقوى العامة صفة راسخة فيهم.

والقول الأول أقرب فى هذا السياق، والثانى أخص ويؤيده فى حد ذاته قوله تعالى: أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ "يونس ٦٢، ٦٣".

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، أنه لاحق لهم فى الولاية على هذا البيت ولاسيما بعد ظهور الإسلام ووجود أولياء الله تعالى الموحدين الصالحين، وكانوا يدعون هذا الحق بنسبهم الإبراهيمى وقد أبطله الظلم، وبقوتهم فى قومهم وإن

---

[1] سورة الأنفال آية ٣٤.

كانت إلى ضعف، أو لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء الله عزوجل ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين، فهم الآمنون من عذابه بمقتضى عدله فى خلقه، والحقيقون بالولاية على بيته على ما أعد لهم من الثواب والنعيم بفضله كما صرحت به آياته فى كتابه.

وقد أسند هذا الجهل إلى أكثرهم إذ كان فيهم من لا يجهل سوء حالهم فى جاهليتهم وضلالهم فى شركهم وكونه لا يرضى الله تعالى، فإن امتنع رؤساؤهم من الإسلام كبراً وعناداً فقد كان فيهم من يكتم إيمانه خوفاً من الفتنة ويتربص الفرصة لإظهاره بالاستعداد للهجرة، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة)[1].

ونستخلص من ذلك أن:

١- الآية الكريمة آنفة الذكر صرحت بعذاب هولاء المشركين الذين يصدون المسلمين عن دخول المسجد الحرام بعد انتفاء العذر عنهم لزعمهم الباطل أنهم أولاياءه فرد عليهم المولى عزوجل بزوال تلك الولاءة عنهم وإثبتها للمتقين، إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ.

٢- تعددت أنواع صد هؤلاء المشركين للمسلمين كعدم دخولهم لأداء المناسك، ومنعهم من الصلاة فيه إلى غير ذلك من أنواع الصد.

---

[1] تفسير المنار ٩/٥٤٦-٥٤٧ بتصرف.

المبحث الثالث
البشرى بدخول المسجد الحرام وجعله قبلة للناس إلى يوم القيامة

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول:
بشرى النبى ﷺ بدخول المسجد الحرام

هناك آية من كتاب الله تعالى تحدثت فى هذا الأمر وهى قوله تعالى: لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا [1].

أخبر المولى تبارك وتعالى فى هذه الآية الكريمة عن رؤيا الرسول ﷺ بدخوله وأصحابه المسجد الحرام آمنين من عدوهم دون خوف من إخراجهم فى المستقبل وهذه بشرى للنبى ﷺ وأصحابه يقول العلامة ابن عطية –رحمه الله- (روى فى تفسير هذه الآية أن رسول الله ﷺ رأى فى منامه عند خروجه إلى العمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون.

وقال مجاهد: أرى ذلك بالحديبية فأخبر الناس بهذه الرؤيا ووثق الجميع بأن ذلك يكون فى وجهتهم تلك، وقد كان سبق فى علم الله تعالى أن ذلك يكون، لكن ليس فى تلك الوجهة.

وروى أن رؤياه إنما كانت أن ملكاً جاءه فقال له "لتدخن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين وإنه بهذا أعلم الناس فلما قضى الله فى الحديبية بأمر الصلح وأخذ رسول الله ﷺ فى الصد، وقال المنافقون أين الرؤيا؟ ووقع فى نفوس المسلمين شيئ من ذلك، فأنزل الله تعالى: لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ.

واختلف الناس فى معنى الاستثناء فى هذه الآية:

فقال بعض المتأولين هو استثناء من الملك المخبر للنبى ﷺ فى نومه، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت وقال آخرون: هو أخذ من الله تعالى عباده بأدبه فى استعماله فى كل فعل يوجب وقوعه، كان ذلك مما يكون ولابد، أو كان مما قد يكون وقد لا يكون، وقال بعض العلماء إنما استثنى من حيث كل واحد من الناس فى رد هذا الوعد إلى نفسه أمكن أن يتم الوعد فيه وأن لا يتم، إذ قد يموت الإنسان أو يمرض أو يغيب، وكل واحد فى ذاته محتاج إلى الاستثناء فلذلك استثنى عزوجل فى الجملة إذ فيهم ولابد من يموت أو يمرض.

وقال آخرون: استثنى لأجل قوله "آمنين" لأجل إعلامه بالدخول، فكان الاستثناء مؤخر عن موضعه، ولا فرق بين الاستثناء من أجل الأمن أو من أجل الدخول لأن الله تعالى قد أخبر بهما ووقت الثقة بالأمرين فالاستثناء من أيهما كان فهو استثناء من واجب.

واختلف الناس فى الفتح القريب:

فقال كثر من الصحابة: هو بيعة الرضوان، وروى عن مجاهد وابن إسحاق أنه صلح الحديبية، وقد روى أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قال للنبى ﷺ وفتح هو يا رسول الله؟ قال نعم.

وقال ابن زيد الفتح القريب خيبر حسبما تقدم من ذكر انصرافاً فى رسول الله ﷺ إلى فتحها. وقال قوم: الفتح القريب فتح مكة، وهذا ضعيف لأن فتح مكة لم يكن من دون دخول رسول الله ﷺ وأصحابة مكة، بل كان بعد ذلك بعام، لأن الفتح كان سنة ثمان من الهجرة.

ويحسن أن يكون الفتح هذا اسم جنس يعم كل ما وقع مما للنبى ﷺ فيه ظهور وفتح عليه.

من خلال ما ذكره العلامة ابن عطية –رحمه الله- تبين أن الرؤيا التى صدقها الله لرسوله كانت بالحديبية، وترتب عليها قول المنافقين أين الرؤيا ودخول الريبة فى بعض النفوس الضعيفة من المسلمين لما صدوا عن دخول المسجد الحرام بعد الرؤيا.

القول بضعف من قال الفتح: هو فتح مكة، والأولى أن يكون عاماً ليشمل كل فتح حدث للنبى ﷺ إلى غير ذلك من الأمور التى ذكرها فى تفسيره لهذه الآية.

وقال العلامة محمد الأمين الهررى فى معنى هذه الآية

---

[1] سورة الفتح آية ٢٧.

والمعنى: أراه الرؤيا الصادقة المتلبسة بالحق والحكمة، حيث قال النبى ﷺ لأصحابه وقت خروجه إلى الحديبية: والله "لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله تعالى" حال كونكم "آمنين" من العدو، فلا تجافون عدوكم من أن يخرجوكم فى المستقبل وهو حال من فاعل "لتدخلن" والشرط معترض، وكذا قوله "محلقين رؤسكم"، أى: جميع شعورها "ومقصرين" بعض شعورها؛ أى محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون، وإلا فلا يجتمع الحلق والتقصير فى كل واحد منهم، بل لاجتماعهما فى مجموع القوم، ثم إن قوله "محلقين" و"مقصرين" من الأحوال المقدرة، فلا يرد أن حال الدخول هو حال الإحرام، وهو لا بجامع الحلق والتقصير وقدم الحلق على التقصير، وهو قطع أطراف الشعر؛ لأن الحلق أفضل من التقصير، وقد حلق رسول الله ﷺ بمنى، وأعطى شعر شق رأسه أبا طلحة الأنصارى، وهو زوج أم سليم: وهى والدة أنس بن مالك فكان آل أنس يتهادون به بينهم.

وتلك الرؤيا أنه ﷺ رأى عام الحديبية قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤسهم وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوا مكة فى عامهم، فلما خرجوا معه ﷺ وصدهم المشركون بالحديبية ورجعوا وشق عليهم ذلك.

قال عبد الله بن أبى وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت هذه الآية المذكورة، ولما نزلت علم المسلمون أنهم يدخلونها فيما يستأنف، واطمأنت قلوبهم، ودخلوها مع النبى ﷺ فى ذى القعدة سنة سبع، وصدقت رؤياه ﷺ[1].

نستخلص من ذلك أن:

١- هذه الآية الكريمة بشرى للنبى ﷺ وأصحابه الكرام بدخول المسجد الحرام دون تحديد وقت لأن الدخول معلق بمشيئة الله –تعالى-.

---

[1] تفسير حدائق الروح والريحان ٣٠٤/٢٧- ٣٠٥ بتصرف.

المطلب الثانى:
البيت الحرام قبلة للناس إلى يوم القيامة

الآيات القرآنية التى تحدثت عن هذا الموضوع هى:

قوله تعالى: قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ "البقرة ١٤٤".

وقوله تعالى: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "البقرة ١٤٩-١٥٠".

سبب نزول قوله تعالى قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا....، قال التصوير مغطى على الكلام أرجو المراجعة ؟؟؟؟؟؟؟؟؟، (قال ابن اسحاق: حدثنى إسماعيل بن خالد عن أبى ؟؟؟؟؟؟؟؟؟ عن الراء قال: "كان رسول الله ﷺ يصلى ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ ببيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، وفأنزل الله: قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، فقال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا قبل بيت المقدس، فإنزل الله **"وما كان الله ليضيع إيمانكم"**.

وقال السفهاء من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ فأنزل الله "سيقول السفهاء من الناس" المآية وفى الصحيحين عن البراء: "مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم؟ فأنزل الله: "وما كان الله ليضيع إيمانكم")[1].

وفى الآية الكريمة قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ، يقول العلامة أبو حيان –رحمه الله- (قال قتادة والسدى وغيرهما: كان رسول الله ﷺ يقلب وجهه فى الدعاء إلى الله تعالى أن يحوله إلى قبلة مكة، وقيل كان يقلب وجهه ليؤذن له فى الدعاء.

وقال الزمخشرى؛ كان يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأدعى للعرب إلى الإيمان، لأنها مفخرهم ومزارهم ومطافهم، ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل –عليه السلام- والوحى بالتحويل واختص التقلب بالسماء لأن السماء جهة تعود منها الرحمة، كالمطر والأوار والوحى، فهم يجعلون رغبتهم حيث توالت النعم، ولأن السماء قبلة الدعاء، ولأنه كان ينتظر جبريل، وكان ينزل من السماء.

"فلنولينك قبلة ترضاها" هذا يدل على أن فى الجملة السابقة حالاً محذوفة، التقدير: قد نرى تقلب وجهك فى السماء طالباً قبلة غير التى أنت مستقبلها، وجاء هذا الوعد على إضمار قسم مبالغة فى وقوعه، لأن القسم يؤكد مضمون الجملة المقسم عليها.

وجاء الوعد قبل الأمر لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعد فيتوالى السرور مرتين، ولأن بلوغ المطلوب بعد الوعد به أنس فى التوصل من مفاجأة وقوع المطلوب، "فول وجهك شطر المسجد الحرام": أى استقبل بوجهك إلى الصلاة نحو الكعبة، وبهذا الأمر نسخ التوجه إلى بيت المقدس. قالوا: وإنما لم يذكر فى الصلاة، لأن الآية نزلت وهو فى الصلاة،

---

[1] لباب النقول فى أسباب النزول ص٢٨.

فأغنى التلبس بالصلاة عن ذكرها. ومن قال نزلت فى غير الصلاة، فأغنى عن ذكر الصلاة أن المطلوب لم يكن إلا ذلك، أعنى التوجه فى الصلاة. وأقول فى قوله: "فلنولينك قبلة ترضاها" ما يدل على أن المقصود هو فى الصلاة، لأن القبلة هى التى يتوجه إليها فى الصلاة.

وأراد بالوجه جملة البدن، لأن الواجب استقبالها بجملة البدن، وكنى بالوجه عن الجملة لأنه أشرف الأعضاء، وبه يتميز بعض الناس عن بعض.

وقد يطلق ويراد به نفس الشيئ، ولأن المقابلة تقتضى ذلك، وهو أنه قابل قوله "قد نرى تقلب وجهك" بقوله: "فول وجهك".

والشطر يطلق ويراد به النصف، ويطلق ويراد به النحو، وأكثر المفسرين على أن المراد بالشطر تلقاؤه وجانبه وهو اختيار الشافعى، وقال الجبائى، وهو اختيار القاضى: المراد منه وسط المسجد ومنتصفه، لأن الشطر هو النصف، والكعبة بقعة فى وسط المسجد.

والواجب هو التوجه إلى الكعبة وهى كانت فى نصف المسجد، فحسن أن يقال "فول وجهك شطر المسجد" يعنى النصف من كل جهة، وكأنه عبارة عن بقعة الكعبة، ويدل على صحة ما ذكرناه أن المصلى خارج المسدد متوجهاً إلى المسجد، لا إلى منتصف المسجد الذى هو الكعبة، لم تصح صلاته، وأنه لو فسرنا الشطر بالجانب، لم يكن لذكره فائدة، ويكون لا يدل على وجوب التوجه إلى منتصفة الذى هو الكعبة. قال ابن عباس وغيره: وجه رسول الله ﷺ إلى البيت كله.

وقال ابن عمر: إنما وجه هو واقعة حيال ميزاب الكعبة والميزاب هو قبلة المدينة والشام، وهناك قبلة أهل الأندلس بتقريب.

ولا خلاف أن الكعبة قبلة من كل أفق، وفى حرف عبد الله فول وجهك تلقاء المسجد الحرام.

والقائلون بأن معنى الشطر: النحو اختلفوا: فقال ابن عباس: البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب وهذا قول مالك.

وقال آخرون: القبلة هى الكعبة: والظاهر أن المقصود بالشطر: النحو والجهة، لأن فى استقبال عين الكعبة حرجاً عظيماً على من خرج لبعده عن مسافتها.

وفى ذكر المسجد الحرام دون ذكر الكعبة دلالة على أن الذى يجب هو مراعاة جهة الكعبة لا مراعاة عينها.

واستدل مالك من قوله "فول وجهك شطر المسجد الحرام" على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع السجود، خلافاً للنورى والشافعى والحسن فى أنه يستحب أن ينظر إلى موضع سجوده، وخلافاً لشريك القاضى، فى أنه ينظر القائم إلى موضع سجوده، وفى الركوع إلى موضع قدميه، وفى السجود إلى موضع أنفه، وفى القعود إلى موضع حجره.

"وحيثما كنتم": هذا عموم فى الأماكن التى يحلها ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ أى فى أى موضع كنتم، وهو شرط وجزاء، ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ وكنتم فى موضع جزم.

"فولوا وجوهكم شطره" وهذا أمر لأمة محمد ﷺ لما تقدم أمره بذلك، أراد أن يبين أن حكمه وحكم أمته فى ذلك واحد مع مزيد عموم فى الأماكن لئلا يتوهم أن هذه القبلة مختصة بأهل المدينة، فبين أنهم فى أيما حصلوا من بقاع الأرض وجب أن يستقبلوا شطر المسجد، ولما كان ﷺ المنشوف لأمر التحويل بدأ بأمره أولاً ثم اتبع أمر أمته ثانياً لأنهم تبع له فى ذلك ولئلا يتوهم أن ذلك مما اختص به ﷺ)[1].

مما ذكره العلامة أبو حيان تبين لى ما يلى:

١- أن الرسول ﷺ كان يتشوف ويتطلع كثيراً إلى السماء داعياً ربه أن يحوله إلى البيت الحرام لأنه قبلة أبيه إبراهيم –عليه السلام- فحوله المولى تبارك وتعالى إلى قبلة يرضاها فهى قبلة لجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة.

٢- ورد الأمر لجميع الأمة المحمدية أيضاً أن يولوا وجوههم شطر البيت الحرام فى صلاتهم وتبطل الصلاة بعدم استقبال البيت الحرام متعمداً.

يقول العلامة ابن رشد –رحمه الله- اتفق المسلمون على أن التوجه نحو البيت شرط من شروط صحة الصلاة لقوله تعالى: وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ ، "البقرة ١٤٩".

أما إذا أبصرت البيت فالغرض عندهم هو التوجه إلى عين البيت ولا خلاف فى ذلك.

وأما إذا غابت الكعبة عن الأبصار، فاختلفوا من ذلك فى موضعين: أحدهما: هل الفرض هو العين، أو الجهة؟ والثانى: هل فرضه الإصابة أو الاجتهاد أعنى إصابة الجهة أو العين، فذهب قوم إلى أن الفرض هو العين، وذهب آخرون إلى أنه الجهة والسبب فى اختلافهم هل فى قوله تعالى فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ، محذوف؟ حتى يكون

---

[1] البحر المحيط فى التفسير ٢/٢٢-٢٥ بتصرف.

تقديره: ومن حيث خرجت فول وجهك جهة شطر المسجد الحرام أم ليس ها هنا محذوف أصلاً، وأن الكلام على حقيقته؟ فمن قدر هنالك محذوفاً، قال: الفرض العين والواجب حمل الكلام على الحقيقة حتى يدل الدليل على حمله على المجاز.

واتفاق المسلمين على الصف الطويل خارج الكعبة يدل على أن الفرض ليس هو العين، أعنى إذا لم تكن الكعبة مبصرة، والذى أقوله: إنه لو كان واجباً قصد العين لكان حرجاً وقد قال تعالى: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، "الحج ٧٨".

فإن إصابة العين شيئ لا يدرك إلا بتقريب وتسامح بطريق الهندسة، واستعمال الأرصاد فى ذلك، فكيف بغير ذلك من طريق الاجتهاد[1].

يتضح من كلام العلامة ابن رشد أن الفرض هو استقبال جهة الكعبة لا عين الكعبة لمن كان بعيداً عنها لتعذر إدراك العين، وهذا من رحمة الله بنا.

وفى قوله –تعالى- وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ..... "البقرة ١٤٩-١٥٠".

فى هاتين الآيتين قال الإمام الرازى –رحمه الله- (أعلم أن أول ما فى هذه الآية من البحث أن الله تعالى قال قبل هذه الآيات قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ..... الآية

وذ ها هنا ثانياً قوله تعالى: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ..... ثم ذكر ثالثاً قوله: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ..... فهل فى هذا التكرار فائدة أم لا؟ وللعلماء فيه أقوال:

أحدها: إن الأحوال ثلاثة، أولها: أن يكون الإنسان فى المسجد الحرام، وثانيها: أن يخرج عن المسجد الحرام ويكون فى البلد، وثالثاً: أن يخرج عن البلد إلى أقطار الأرض.

فالآية الأولى محمولة على الحالة الأولى، والثانية على الثانية والثالثة على الثالثة، لأنه قد يتوهم أن للقرب حرمة لا تثبت فيها للبعد فلأجل إزالة هذا الوهم كرر الله تعالى هذه الآيات.

الجواب الثانى:

أنه سبحانه أعاد ذلك ثلاث مرات لأنه علق بها كل مرة فائدة زائدة.

أما فى المرة الأولى: فبين أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد ﷺ وأمر هذه القبلة حق لأنهم مشاهدوا ذلك فى التوراة والإنجيل.

وأما فى المرة الثانية: فبين أنه تعالى يشهد أن ذلك حق وشهادة الله بكونه حقاً مغايرة لعلم أهل الكتاب بكونه حقاً.

وأما فى المرة الثالثة: فبين أنه إنما فعل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة، فلما اختلفت الفوائد حسنت إعادتها لأجل أن يترتب فى كل مرة من هذه المرات واحدة من هذه الفوائد ونظيره قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ "البقرة ٧٩".

---

[1] بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١١٨/١-١١٩ للإمام أبى الوليد محمد بن أحمد بن راشد القرطبى الأندلس. ط دار الحديث.

والجواب الثالث:

أنه تعالى قال فى الآية الأولى: فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ، فكان ربما يخطر ببال جاهل أنه إنما فعل ذلك طلباً لرضا محمد ﷺ لأنه قال: فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ، فأزال الله تعالى هذا الوهم الفاسد بقوله: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ، أى نحن ما حولناك إلى هذه القبلة بمجرد رضاك، بل لأجل أن هذا التحويل هو الحق الذى لا محيد عنه فاستقبالها ليس لأجل الهوى والميل كقبلة اليهود المنسوخة التى إنما يقيمون عليها بمجرد الهوى والميل، ثم أنه تعالى قال ثالثا: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ، والمراد دوموا على هذه القبلة فى جميع الأزمنة والأوقات ولا تولوا فيصير ذلك التولى سبباً للطعن فى دينكم.

والحاصل أن الآية السالفة أمر بالدوام فى جميع الأمكنة والثانية أمر بالدوام فى جميع الأزمنة والأمكنة، والثالثة أمر بالدوام فى جميع الأزمنة وإشعاراً بأن هذا لا يصير منسوخاً البتة.

والجواب الرابع:

أن الأمر الأول: مقرون بإكرامه إياهم بالقبلة التى كانوا يحبونها وهى قبلة أبيهم إبراهيم –عليه السلام-

والثانى: مقرون بقوله تعالى: "ولكل وجهة هومولیها" أى لكل صاحب دعوة وملة قبلة يتوجه إليها فتوجهوا أنتم إلى أشرف الجهات التى يعلم الله أنها حق وذلك هو قوله: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ.

والثالث مقرون بقطع الله تعالى حجة من خاصمه من اليهود فى أمر القبلة.

فكانت هذه عللاً ثلاثاً قرن بكل واحدة منها أمر بإلتزام القبلة.

والجواب الخامس

أن هذه الواقعة أول الوقائع التى ظهر النسخ فيها فى شرعنا قدمت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة وإيضاح البينات[1].

من خلال كلام الإمام الرازى آنف الذكر تبين لى:

١- كررت الآية الكريمة نظراً لتكرر الأحوال فلكل حالة من الحالات ما يناسبها من الثلاث آيات.

٢- أنه فى كل مرة من مرات التكرار فعلقت به فائدة ولاشك أن كل فائدة تختلف عن الأخرى فلذلك حسن التكرار.

٣- إن هذا التحويل ليس طلباً لمرضاة الرسول ﷺ وإنما لأمر إرادة الله تبارك وتعالى كما ظن السفهاء من الناس أن القرض مرضاة الرسول ﷺ.

أما عن الحكمة من تحويل القبلة وتخصيص المسلمين بقبلة يقول الشيخ سيد قطب –رحمه الله-: (لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحمة تربوية أشارة إليها آية فى هذا الدرس: **"وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبية"** فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم التى كانوا عليها، ويعدونه عنوان مجدهم القومى، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامى المرتبط بالله مباشرة المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه –فترة- إلى المسجد الأقصى ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ومن كل ما كانت تتعلق به فى الجاهلية وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التى وجههم إليها الرسول ﷺ وفى الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم.

---

[1] مفاتيح الغيب ٤/١٢٤-١٢٦ بتصرف.

صدر الأمر الإلهى بالاتجاه إلى المسجد الحرام، ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه، هى حقيقة الإسلام حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التى نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث فى بنيه رسولاً منهم بالإسلام.

كان هذا الحديث الذى سلف تمهيد عن تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بعد هذه الفترة، فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ودعوا عنده ذلك الدعاء الطويل يبدوا فى هذا السياق هو الاتجاه الطبيعى المنطقى مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده مع ربه، فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى، الذى يتجه إليه اليهود والنصارى فقد كان هذا التوجه لحكمة والآن يجئ تحويل القبلة فى أوانه، تحويلها إلى بيت الله الأول الذى بناه إبراهيم لتتميز كل خصائص الوراثة حسيها وشعوريها، وراثة الدين، ووراثة القبلة، ووراثة الفضل من الله جميعاً)[1].

نستخلص من ذلك أن:

١- المسجد الحرام قبلة لجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٢- جعل قبلة المسلمين أولاً إلى المسجد الأقصى كان لحكمة جليلة والرجوع والعودة إلى البيت الحرام لحكم عظيمة وجليلة ولم يكن ذلك عبثاً.

---

[1] فى ظلال القرآن ١٢٦/١-١٢٧ بتصرف للشيخ/ سيد قطب ط دار الشروق السابعة والثلاثون ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

الخاتمــة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين

وبعد،،،،،

فقد انتهيت بحمد الله وعونه ومشيئته من هذا البحث المواضع الذى أسميته (البيت الحرام فى القرآن الكريم- دراسة موضوعية) أرجو الله –تعالى- أن أكون وفقت فى عرضه وأن أكون قد سددت وقاربت فى الوفاء بالمطلوب بقدر الطاقة البشرية.

كما أسأل الله لى ولمن قرأ هذا البحث أن يرزقنا حج بيته وزيارة قبر نبيه ﷺ مراراً عديدة فى أزمنة مديدة – آمين.

وقد خرجت من هذا البحث المتواضع بالنتائج الآتية:

أولاً: البيت الحرام هو أول البيوت الموضوعة فى الأرض لعبادة الله تبارك وتعالى:

ثانياً: جعله الله تبارك وتعالى – أمناً وأماناً فى الإسلام وقبلة ولم يتعرض أحد له بسوء إلا أهلكه الله كما حدث لأصحاب الفيل.

ثالثاً: توفر لهذا البيت المعظم من الفضائل والمزايا ما لم يتوفر فى بيت آخر من بيوت العبادة.

رابعاً: حرم الله عزوجل هذا البيت وحرم التعرض لأى شيئ له علاقة بهذا البيت المعظم.

خامساً: صرح المولى عزوجل بعذاب من صد قاصد هذا البيت للنسك والزيارة وهذا يدل على قدسيته وحرمته وتعظيمه عند الله.

سادساً: البيت الحرام قبلة لجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يتجهون إليه فى صلاتهم ويذهبون إليه فى حجهم وعمرتهم.

رزقنا الله جميعاً زيارة بيته المحرم –آمين

وبعد: فما كان فى هذا البحث من صواب فهو من الله وله الحمد وما كان من قصور فهو من النفس. والحمدلله أولاً وأخيرا.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم، جل من أنزله
* أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير – لأبى بكر جابر الجزائرى – ط دار الحديث ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
* البحر المحيط فى التفسير – للإمام أثير الدين أبى عبد الله محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى الفرناطى الحيانى الشهير بأبى حيان المتوفى ٧٤٥هـ - ط دار الفكر الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
* البرهان فى علوم القرآن – للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى - ط دار التراث.
* التمرير والتنوير - للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ط دار محنون للنشر والتوزيع - تونس.
* التسهيل لعلوم التنزيل – للإمام ابن جزى الكلبى - ط دار الكتاب العربية بيروت ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
* تفسير القرآن العظيم – للإمام الحافظ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقى - ط دار القلم.
* تفسير آيات الأحكام – للشيخ محمد على السايس.
* التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمذهب - د/ وهبة الزحيلى.
* التفسير الموضوعى - أ.د/ محمود بسيونى فودة - ط الأمانة – الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.
* جامع البيان عن تأويل القرآن للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - ط البابى الحلبى وشركاه.
* الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى – للإمام أبى عيسى محمد بن سورة الترمذى المتوفى ٣٧٩هـ - ط دار إحياء التراث العربى.
* حدائق الروح والريحان فى روابى علوم القرآن – للعلامة محمد الأمين بن عبد الله الأزمى العلوى الهررى الشافعى - ط دار طوق النجاة الأول ٤١٢١هـ ٢٠٠١م.
* حديث القرآن عن خليل الرحمن - أ.د/ عبد المنعم ممدوح رماح - الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م.
* روح البيان –للشيخ إسماعيل حقى البروسوى - ط دار إحياء التراث السابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
* روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى - للإمام أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى المتوفى ١٢٧٠هـ - ط دار المعرفة بيروت.
* سنن أبى داود - للإمام الحافظ أبى داود سليمان ابن الأشعث السجستانى الأزرى - ط دار الكتب العلمية.
* ظلال القرآن - للشيخ سيد قطب - ط دار الشروق.
* غرائب القرآن ورغائب الفرقان - للعلامة نظام الدين الحسن ابن محمد بن حسن القمى النيسابورى المتوفى ٧٢٨هـ - ط دار الكتب العلمية الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
* فتح البيان فى مقاصد القرآن - لأبى الطيب صديق بن حسن خان المتوفى ١٣٠٧هـ - ط دار الكتب العلمية الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل – لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى - ط دار المعرفة للطباعة والنشربيروت – لبنان.
* لباب النتول فى أسباب النزول – للإمام السيوطى - ط المكتبة التوفيقية.
* المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - للقاضى أبو بكر محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسى المتوفى ٤٦هـ - ط مكتبة ابن تيمية.
* معالم التنزيل – لأبى محمد الحسين بن مسعود الفراء التفى الشافعى - ط دار المعرفة بيروت الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
* معالم سور القرمآن د/ جمعة على عبد القادر - ط مكتبة رشوان.
* مفاتيح الطيب – للإمام فخر الدين بن عمر الرازى - ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
* النكت والعيون – للإمام الماوردى أبى الحسن على بن محمد بن جيب البصرى المتوفى ٤٥٠هـ - ط دار الكتب العليمة بيروت لبنان الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
* كتب الفقه – بداية المجتهد ونهاية المقتصد – لابن رشد الحفيد - ط دار الحديث ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات

الموضـوع **الصفحـة**

المقدمــة
التمهـيد
المبحث الأول:
المطلب الأول:
أقوال العلماء فى المراد بالأولية
الفرض من ذكر هذه الأولية
معنى كونه موضوعاً للناس
الأقوال الواردة فى بكة واشتقاقها
فضائل البيت الحرام المذكورة فى الآيتين
المطلب الثانى:
كون البيت أمناً وأماناً للناس جميعاً
الاختلاف فى جعله آمنا
المطلب الثالث
تشريف الله لإبراهيم بأن يبين له مكان البيت وأذن له فى رفع قواعده
بناء الكعبة الشريفة
المبحث الثانى:
تحريم صد قاصدى المسجد الحرام من الدخول إليه
المطلب الأول:
وعيد الصادين والملحدين بعذاب أليم
الاختلاف فى لاعاكف والبد فى أى شيئ يستويان
أقوال المفسرين فى المراد بالالحاد فى البيت الحرام
المطلب الثانى:
تحريم التعرض لأى شيئ له علاقة بالحرم
اختلاف المفسرين فى المراد بشعائر الله
اختلاف فى القول بنسخ الآية
المطلب الثالث:
التصريح بعذاب الصادين عن المسجد الحرام بعد انتفاء العذر عنهم
المبحث الثالث:
المطلب الأول:
البشرى بدخول المسجد الحرام وجعله قبلة للناس إلى يوم القيامة
بشرى النبى ﷺ بدخول المسجد الحرام
الاختلاف فى الفتح القريب
المطلب الثانى:
البيت الحرام قبلة للناس إلى يوم القيامة
الخاتمة
المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات